الخليج العربي ..... المجلد العشرون ..... العدد (٣) ١٩٨٨
..... مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ـ الجمهورية العراقية .....

من اعلام البصرة في الشعر :

الحسين بن الضحاك

الاستاذ الدكتور عبد الحسين المبارك
مركز دراسات الخليج العربي
جامعة البصرة

المقدمـــة :

شاعر عباسي فحل استوقفني كثيراً، وأنا أقرأ في كتاب «الأغاني» ذات ليلة، قبل أكثر من ربع قرن، فأعجبت بشعره، وعمق افكاره، ولطيف معانيه، وعذوبة موسيقاه ذلك هو الحسين بن الضحاك الباهلي الذي بدأت نفسي تميل الى شعره كلما قرأت قصيدة أو مقطوعة من شعره.

وبقيت صحبتي إياه عن طريق القراءة والاعجاب طوال هذه السنوات حتى تجمعت لدي ملاحظات كثيرة اردت ها الآن ان تجمع في بحث مستقل يعطي للرجل ماله، وماعليه، لاسيما ان صاحبه، ورفيق صباه أبا نواس قد نال حظه من البحث

والدراسة اكثر منه وهو الذي أسر بشعره، وهمّ بالتقاط معانيه، ولم يكن اخلاصه للعرب كاخلاص الحسين بن الضحاك، الذي شهد الصراع بين العرب والاعاجم متمثلا في الصراع بين الامين والمامون.

ولما كنت قد هيأت مجموعة من شعره قبل ان احصل على مجموعة الاستاذ عبد الستار احمد فرّاج، جاءت الاشارات خلال هذا البحث مدعمة بالمصادر الأساس التي اعتمدها فرّاج كذلك، غير ناس فضله في السبق الى جمع الشعر، وقد ارجأت نشر ديوان الخليع في الوقت الحاضر حتى تسنح لي فرصة اخرى تضاف فيها قصائد اخرى للشاعر لم يهتد اليها الاستاذ فراج.

وقد حاولت في هذا البحث تجاوز المكرور من القول في حياة العصر وماساده من امتزاج في الثقافة العربية بغيرها مما عند المسلمين من غير العنصر العربي، مع علمنا بان لذلك التمازج اثره في نتاج الشاعر.

أما السيرة الشخصية فإلماح الى حياة الشاعر منذ نشأته الاولى في البصرة، وانتقاله الى بغداد، ومعاصرته لعدد من خلفاء بني العباس، كان شعره مصداقاً لها. وقفنا خلالها مع الشاعر وقفات تقصر او تطول حسبما املاه ظرف القول.

ثم كانت رحلتنا الاخيرة مع الشاعر في اغراضه الشعرية، ومقدار ماوهبها من حسن السبك، وجودة النظم، والاخلاص لتلك الفنون.

حـــياتـــه:

اصله ونشأته:

هو الحسين بن الضحاك بن ياسر البصري [1]، الشاعر الباهلي، الظريف الذي تضاربت الآراء في اصله ونسبه، فمنهم من جعله باهلياً، ومنهم من ذكر أنه من الموالي، فهو مولى لولد سليمان بن ربيعة الباهلي الصحابي[2]. وعلى هذا يكون خراسانيّ الأصل[3].

وقد سميّ بالخليع لخلاعته، فقد ذكر السمعاني[4] مانصه: «هذا لقب أبي علي الحسين بن الضحاك الشاعر الباهلي».

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) وفيات الاعيان ١ / ١٦٩، والمتحل للشهرستاني ٣١٩.
(٤) الانساب ٢٠٦.

أما ابن عساكر فلم يتحقق من صحة نسبه حين قال: «الحسين بن الضحاك بن ياسر ابو عليّ المعروف بالخليع الباهلي، مولى سليمان بن ربيعة الباهلي، وقيل بل هو من باهلة عربي ليس بمولى، ويعرف بحسين الأشقر، بصري المولد والمنشأ»[٥].

ويرجح ابو الفرج الأصبهاني[٦] انه مولى لباهلة. وعند الموازنة بين هذه الآراء لترجيح أحدها على الآخر تستوقفنا قضيتان يميل كل منهما الى رأي يناقض الرأي الآخر. وهما:-

١ - إنه لم يحشر مع دعاة الشعوبية ليقف ضد السلطان العربي فيشيد بمجد الفرس الساساني، ويهاجي العرب كما فعل الشعراء الشعوبيون ومن حشر معهم من امثال أبان بن عبد الحميد اللاحقي، وسلم الخاسر، وأبي نواس.

٢ - إسرافه في الخلاعة والمجون والعبث الذي مال إليه أكثر الشعراء من الموالي، وممن ابتعدوا عن الذوق العربي.

ففي القضية الأولى لايمكن ان يحشر مع الموالي لموقفه المعروف مع الامين خلال الحرب بين الأخوين - الأمين والمأمون - وبعدها بوقت طويل، حيث وقف العنصر العربي مع الأمين، والعنصر الفارسي الى جانب المأمون.

أما في القضية الثانية فيمكننا ترجيح نسبته الى الموالي لما ذكرناه من ميل أكثر الموالي - اعني الشعراء منهم - الى الجانب اللاهي من الحياة، والخليع واحد منهم، وإن كان ذلك ليس مقياساً لصحة النسب دائماً.

ونحن نميل الى الاقرار بنسبته الى الموالي، وننزهه من الشعوبية، وإن كان في شعره قليل من الاثر الفارسي.

أما مولده فقد حدّده ياقوت[٧] بعام اثنين وستين ومائة، وهو مانصّ عليه ابن الاثير[٨] ايضاً.

وأكد ابن تغري بردي[٩] ان مولده في البصرة سنة اثنتين وستين ومائة وهي السنة التي عليها اكثر المؤرخين وان أخذها بعضهم عن بعض دون ان يلتفتوا الى الحسين نفسه، حيث يمكن ان يستشف من قوله ان مولده قبل هذا التاريخ، فقد ذكر ابو الفرج الاصبهاني[١٠] هذه الرواية بقوله:

(٥) التاريخ الكبير ٤ / ٢٩٧.
(٦) الاغاني ط دار الفكر ٦ / ٣٦١.
(٧) معجم الادباء ١٠ / ٦.
(٨) الكامل في التاريخ ٧ / ٨٩.
(٩) النجوم الزاهرة ٢ / ٣٣٢.
(١٠) الاغاني ط دار الفكر ٦ / ٤٤٣.

وحدثني عمي قال: حدثني يزيد بن محمد المهلبي قال: سألت حسين بن الضحاك ونحن في مجلس المتوكل عن سنه فقال: لست احفظ السنة التي ولدت فيها بعينها، ولكني اذكر وأنا بالبصرة موت شعبة بن الحجاج سنة ستين ومائة.

فاذا ما قدرت ذاكرة الانسان ووعيه بخمس سنوات يكون تاريخ ميلاده سنة خمس وخمسين ومائة للهجرة على وجه التقريب.

والحسين بن الضحاك من فحول شعراء الدولة العباسية الذين ضمتهم قصور الخلفاء، ومجالس الخلعاء، واطربتهم رنات الكؤوس، واسكرتهم ألغام الجواري، وطارت بعقولهم نضارة الغلمان. وهو من اصدقاء ابي نواس وخلانه في الخمرة واللهو والعبث. فقد نشآ معاً في البصرة، واختلفا الى مجالس الأنس والطرب الى ان رحل ابو نواس الى الكوفة ومنها الى بغداد. ثم لحق به وجدّد ايام الصفاء، والاختلاف الى مطارح اللهو.

وللبصرة فضل كبير في نشأته الاولى حيث كانت الحركة العلمية والادبية قائمة على اسس قوية، غذّتها الثورة الفكرية التي خلفتها معارك النحو واللغة في مربدها، ومجالسها الحافلة بالعلماء والادباء والشعراء، وطلابهم، وعشاقهم. ولم يكن حظ الحسين أقل من هؤلاء في تغذية ملكته الشعرية التي تفتحت في بغداد. فحينما وصل الى عاصمة العباسيين اتصل بالخلفاء وظل يشايعهم ومجالسهم الى ايام المستعين[11]. وقال فيهم من الشعر ماجعله محبوباً في مجالسهم مقرباً اليهم. فقد اتصل في مجالسهم الى مالم يتصل اليهم احد الا اسحاق بن ابراهيم الموصلي فانه قاربه في ذلك وساواه[12].

وكان هذه النشأة المتفتحة للحياة اثر كبير في رقة شاعريته، وصفاء اسلوبه، وعذوبة انغامه، ولهذا اغار على شعره ومعانيه حتى اخلص اصدقائه حسداً له، وطمعاً في الشهرة.

أما سنة وفاته فكان الاختلاف فيها طفيفاً، فمن المؤرخين من حددها بسنة ٢٥٠هـ، ومنهم من جعلها ٢٥١ هـ، غير انهم جميعاً يذكرون انه عمر طويلاً حتى قارب مائة عام، ومات في خلافة المستعين أو المنتصر[13]. وقد ذكر ابن الاثير وفاته ضمن حوادث سنة ٢٥٠ هـ، وهي السنة التي نص عليها كل من الثعالبي[14]

(١١) الانساب ٢٠٦.
(١٢) وفيات الاعيان ١ / ١٧٠.
(١٣) الاغاني ٦ / ٣٦١.
(١٤) الكامل ٧ / ٨٩.
(١٥) النجوم ٣١٩.

والسمعاني[16] وابن عساكر[17] وابن خلكان[18].

أما صاحب الشذرات[19] فقد جعلها ضمن حوادث سنة احدى وخمسين ومائتين الا انه كان متردداً في ذلك فقد قال: «وفيها - اي سنة ٢٥١ هـ - بل في التي قبلها كما جزم ابن خلكان وغيره - توفي الحسين بن الضحاك بن ياسر البصري المعروف بالخليع».

وقد عدها صاحب النجوم الزاهرة[20] في حوادث سنة ٢٥١ هـ. وهذا الاختلاف البسيط في تاريخ وفاته، ومن قبل في تاريخ ولادته لا يؤثر في منزلة الشاعر الفنية، وهو الذي وجدناه يقفز الى درجة الشعراء البلغاء بعد سن متأخرة ليقارع كبارهم فيهاجي مسلم بن الوليد، وينفوق على أبي نواس في الخمرة ومايتبعها من اوصاف قصرت مدارك الحسن بن هاني في احيان كثيرة ان تأتي مثلها، فتناقلتها كتب الادب والتاريخ، ومن اطرف ماقال:-

صلْ بخديّ خدّيك تلق عجيباً ... من معانٍ يحار فيها الضمير
فبخدّيك للربيع رياض ... وبخديّ للدموع غدير[21]

ومما ذكرناه يتبين طول المدة التي عاشها الحسين، وهو من شعراء الطبقة الأولى للدولة العباسية، أمضاها في لذة وطرب فقد تنقل بين قصور الخلافة إلا مدة من حياة المأمون حيث نزح الى البصرة نتيجة مهاجاته المأمون ومدحه الأمين، ورثائه إيّاه بعد مصرعه، فقد حفظ الودّ له وأصفاه، لكونه أول ما اتصل بالأمين وشايعه قبل ان يرتقي عرش الخلافة وظل معه حتى مصرعه، فقد بكاه بلوعة وقال فيه كثيراً من الشعر الذي ينم عن عاطفة جياشة، وشعور يطفح بالأسى والحزن، من ذلك قوله:

أطل حزناً وابك الامام محمدا ... بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تمت الأشياء بعد محمد ... ولازال شمل الملك منه مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ... ولازال في الدنيا طريداً مشرداً[22]

(١٦) الانساب ٢٠٦.
(١٧) التاريخ الكبير ٤ / ٢٩٧.
(١٨) وفيات الاعيان ١ / ١٧٠.
(١٩) شذرات الذهب ٢ / ١٢٣.
(٢٠) النجوم الزاهرة ٢ / ٣٣٣.
(٢١) وفيات الاعيان ١ / ١٦٩.
(٢٢) الاغاني ٦ / ٣٦٥.

وهكذا كان موقفه بعد انتهاء عهد الامين عام ١٩٨ هـ، ودخول المأمون بغداد ظافراً، فلم يبتسم للخليفة المنتصر بل انسحب الى البصرة بعد ان ظل بين الامل واليأس أياماً يعزي نفسه بفقد الأمين ويتمنى رجوعه:

أتمنى من الامين إيابا ... هف نفسي وأين مني الامين

ومن يتأمل شعر الحسين في تلك الفترة لايجد فيه مايجد في شعر الشعراء الآخرين من تذلل وتزلف الى الولاة والخلفاء او ما يجمع بين المتناقضات. غير انه لم يصمد حتى النهاية، فقد وجدناه بعد سنيّ العزل الأدبي والحصر السياسي اللذين فرضا عليه أيام المأمون يتحامل على نفسه فيخرج من عزلته محاولاً التقرب من الخلافة بعد اليأس والخذلان فيبعث من يبعث لاسترضاء المأمون، وتقبل الندم، وتقديم التهاني بين يدي الخليفة الجديد، فلم يوفق الى مبتغاه.

ولقد كانت حياة الحسين ـ عدا تلك الفترة[٢٣] ـ مترفة لاهية كحياة كثيرين من معاصريه، لصلته بالبلاط العباسي أولاً، ولمقدرته الشعرية وعلوّ كعبه فيها ثانياً. ورقة شعوره، واحساسه بالجمال ونزوعه الى الطرب جعلته يحتل مركزاً في البلاط يحسد عليه. اذ كانت حياة العصر تتطلب هذا اللون من الخلق. فقد كان الحسين واقعياً في سلوكه لنقله مشاهد الحياة بكل دقائقها، صادقاً في رسم صورها. لذلك ظلّ محتفظاً بشخصيته الوادعة المبتسمة تغيّر الناس، واختلفت الظروف، وظل هو واحداً لم يتغيّر[٢٤] طوال السنين التي مرّت عليه بأحداثها ومآسيها فعاش متنعماً في دور الخلافة، وحانات بغداد، وديارانها، مسرفاً في نعيمه، غير متورع في ذكر لياليه وأيامه مع معشوقيه غير أنه «على خلاعته واسرافه في المجون، وتهالكه على اللذات احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق، وطهارة العنصر، وجودة الاصل»[٢٥].

والحسين لم يتعود الجلوس في داره ليطيل التفكير في أمر الوصول الى فلان أو فلان من الخلفاء او الولاة وذوي الجاه والسلطان، بل كانت أوقاته تمضي وهو قريب من هؤلاء جميعاً فقد فتحوا أبواب قصورهم ومحافلهم لتحتضن شاعرها المفضل، ونديمها الدائم، وسميرها الشادي بألحان الحياة التي تعكس مايجري في تلك القصور من ظرف، وأدب، ومناظرات، ومطارحات هي أشبه ماتكون بيوميات الخاصة، كما هي

(٢٣) اي في عهد الامين.
(٢٤) حديث الأربعاء ٢ / ١٧٣.
(٢٥) المصدر نفسه.

يوميات العامة. غير انه لم يتبذل في شعر، او يتحدر به انحدار زميله أبي نواس.

الشاعر في الاديرة والحانات:ـ

الدير: «بيت يتعبد فيه الرهبان، ولايكاد يكون في الصدر الاعظم إنما يكون في الصحارى وروؤس الجبال»[٢٦]. واستكمالاً لمتطلبات الحياة الجديدة وتوفير وسائل الراحة لمرتادي أماكن العبادة لاسيما تلك التي أنشئت خارج المدن وعلى اطراف الصحارى فقد كانت تلك الديارات محلات العبادة، ومواقف للمرور حينما اقيمت في عرض الصحراء، وعلى اطراف الطرق البرية التي تربط المدن الاسلامية بعضها بالبعض الآخر، كما كانت محطات تموين وراحة بعد عناء السفر، والرحلة الشاقة. ولسنا مغالين إذا قلنا إنها بعدت عن أهدافها السامية إلى امور عرضية زائلة تسابق الى التمتع بها الشعراء الذين استهوتهم اللذة فخرجوا يطلبونها في الديارات، كما أمّها اهل البطالة للشرب[٢٧].

وكانت كل جماعة من هؤلاء العابثين قد اختصت بدير او ترددت على بضعة ديارات حتى اقترن اسم بعضها باسم الشاعر الذي كان يرتاده: «وكل دير من الديارات، يكاد ينفرد باستيعاب اخبار شخص من اعلام الادب، او السياسة او الادارة، ففيهم الخليفة والامير والوزير والكاتب والاديب والشاعر والنديم الماجن والخليع»[٢٨].

وهذا نجد أسماء عدد من الشعراء تتردد بكثرة مقرونة باسماء تلك الديارات، ففي الحديث عن دير (سابر) نجد ذكراً للحسين بن الضحاك، وعند الحديث عن دير (زرارة) يذكر اسم مطيع بن إياس، وفي دير (عمر مريونان) يذكر كشاجم، وفي دير (العذارى) تتردد اسماء الطاهريين، وقل مثل ذلك عن سائر الديارات التي اقترنت اسماؤ ها بأسماء مخلديها من الشعراء[٢٩].

والحديث عن الديارات لايفسر بالجانب الروحي خالصاً، ولا بالراحة والاستماع الى احاديث سمر وهو، بل يخرج الى ناحية ثالثة هي المتعة الادبية. فالدير يشتمل على مكتبة او خزانة عامرة تضم اشتاتاً من علوم المسيحية وآدابها. كما يضم كنيسة او عدة كنائس ومتنزهات تسحر الالباب، وتشجع على قول الشعر ولطائف الادب، ولامراء

(٢٦) معجم البلدان ٤ / ١١٩.
(٢٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٩٦.
(٢٨) الديارات للشابشتي ـ من مقدمة الناشر الاستاذ كوركيس عواد ٢١.
(٢٩) تراجع «الديارات» في مواضع متفرقة.

في أن للديارات أثراً بيّناً في الأدب العربي لكونها أتاحت لجماعة من الادباء والشعراء الفرصة لان يلجوا باباً من الوصف ماكان لهم ان يلجوه لولاها. تشهد بذلك كتب الديارات العديدة التي صنفوها[٣٠]، لان مواقعها في البر او على ضفاف الانهار او اطراف المدن، او على سفوح الجبال تستثير الشعور، وتحرك الوجدان فيفيض بالصور المتحركة بعد سبات يعقب ساعات خدر حالمة، كقول الحسين بن الضحاك:-

آذنك الناقوس بالفجر وغرّد الراهب بالعمر
فحنّ مخمور الى خمرة وجادك الغيث على قدر
واطردت عيناك في روضة تضحك عن صفر وعن حمر
فعاط ندمانك حميريّة مزاجها معترف الغدر
هات التي تعرف وجدي بها واكن بما شئت عن الخمر[٣١]

ان القائمين على تلك الديارات يمثلون السلطنة الروحية للمسيحيين، غير انه من غريب الأمر انها كانت منبعاً لزهد وورع وبعد عن الدنيا وشؤونها، ومحطات لبعض زهاد المسلمين يروون عن الرهبان اقوالهم في الهرب من اللذات، كما كانت ملتقى للشعراء والادباء يخرجون اليها، ويشيبون بفتياتها، وفتياتها، ويقولون في ذلك القول الخليع، والشعر الجميل[٣٢]، كالذي وجدناه في دير عمر مريونان[٣٣]. أو كقول الحسين في دير مديان:-

حثّ المدام فان الكأس مترعة مما يهيج دواعي الشوق احيانا
اني طربت لرهبان مجاوبة بالقدس بعد هدو الليل رهبانا
فاستنفرت شجناً مني ذكرت به كرخ العراق واخواناً وأشجاناً
فقلت والشوق من عينيّ منحدر والشوق يقدح في الاحشاء نيرانا
يادير مديان لاعريت من سكن ماهجت من سقم يادير مديانا
هل عند قسك من علم فيخبرني ان كيف يسعد وجه الصبح من بانا

(٣٠) المصدر نفسه ٢٣.
(٣١) معجم ما استعجم ٣ / ١٠٩١.
(٣٢) ضحى الاسلام ١ / ٣٤٩.
(٣٣) هوديز (قلاية العمر) نفسه.

سقياً ورعياً لكرخايا وساكنه بين الجنينة والروحاء من كانا[٣٤]

ودير (مديان) هذا على نهر كرخايا ببغداد[٣٥] غير ان ابن عساكر جعله دير (مران) وهو بنواحي الشام، وأورده كذلك البكري. في حين ذكر الاصبهاني[٣٦] انه قال متشوقاً الى بغداد بحضور المعتصم. وابن عساكر جعله الرشيد بدلاً من المعتصم، والصحيح انه دير (مديان) لقوله:ـ

سقياً ورعياً لكرخايا وساكنه بين الجنينة والروحاء من كانا

لكون هذه المواضع متقاربة.

اما ماذكر بأنه بحضرة الرشيد فهو خطأ واضح يدفعه قول الحسين بن الضحاك واعترافه في بداية عهده ببغداد وانه لم يتصل بالرشيد[٣٧].

ومن المصادر مايجهل من حضر المناسبة من الخلفاء، أو لم يشأ ذكره، فياقوت في معجمه يروي القصيدة اعتماداً على الشابشتي بدون ذكر الرشيد او المعتصم[٣٨].

كما أن هناك اضطراباً في نقل القصيدة عند العمري[٣٩]، فقد اوردها خلال حديثه عن دير (مديان) ثم عرج عليها في حديثه عن دير (مُرّان) وبرواية الأغاني نفسها، بدون ان يذكر شيئاً عن هذا الخلط أو اسبابه.

ومن خلال تلك الروايات المتناقضة، والخلط الذي شاب مناسبة القصيدة يتضح للمرء ان الشعراء كانوا يرافقون الخلفاء في تنقلاتهم واسفارهم وغزواتهم، فقد وجدنا صاحب الاغاني[٤٠] يروي القصة كاملة مع ذكر الشاعر الخليع والمعتصم، وفي دير (مرّان) بالشام في احدى الغزوات وذكر طلب المعتصم من الحسين بن الضحاك الانشاد فيه، ورد الحسين بقوله: «أمّا أن اقول شيئاً في وصف هذه الناحية بخير فلا

---

(٣٤) الديارات ٢٢ تاريخ ابن عساكر ٤ / ١٩٧، معجم ما استعجم ٢ / ٦٠٢، ومعجم البلدان ٤ / ١٧١، ومسالك الابصار ١ / ٢٧٧.

(٣٥) الديارات ٢١.

(٣٦) الأغاني ٦ / ١٨٩.

(٣٧) معجم البلدان ٤ / ١٧١.

(٣٨) معجم البلدان ٤ / ١٧١.

(٣٩) مسالك الابصار ١ / ٢٧٧ وانظر مجلة المقتطف عدد مارس ١٩٦٤ ص ٣١٤ ومابعدها.

(٤٠) الاغاني ٦ / ٤٠٩.

احسب لساني منطق به، ولكني اقول متشوقاً الى بغداد» ثم ضحك المعتصم وقال: قل ياشئت. ثم ذكر القصيدة:ـ

يـاديـر مـرّان لاعُـريتَ من سقَم هَيّجتَ لي سَقَماً يـاديـر مُـرانـا

فاستحسنها المعتصم وشرب على ذكرها.

ومانستشفه من جواب الحسين يبيّن لنا انها قيلت اشتياقاً الى بغداد، ودير (مديان) في بغداد، ودير (مرّان) في الشام، والخليفة المقصود هو المعتصم لا الرشيد.

أما الدير الاخر الذي ردده (الخليع) في شعره، وقد كثر تردده عليه فهو دير (سابر) قرب بغداد بين احدى القرى العراقية يقال لها (المزرفة) واخرى يقال لها الصالحية في الجانب الغربي من دجلة، ومازالت معروفة باسمها الى الان[41]. وهذا الدير كغيره من الديارات القريبة من الانهار كثرت حوله البساتين، والمتنزهات، والحانات. لذلك كان من المحطات التي يقصدها المسافرون وطلاب المتعة.

ومن ابرز شعر الحسين فيه قصيدته التي يقول فيها:ـ

وعـواتقٍ بـاشـرت بـين حـدائقٍ ففضضتهنّ وقـد حسن صحـاحـا
اتبعت وخـزة تـلك وخـزة هـذه حتى شـربت دمـاءهـنّ جـراحـا
أبـرزتهن من الخـدور حـواسـراً وتـركت صـون حـريمهن مبـاحـا
في ديـر سـابـر والصبـاح يلوح لي فجمعت بـدراً والـصبـاح وراحـا

والتي يقول فيها:

ومنعـم نـازعت فـضـل وشـاحـه وكـسـوتـه من سـاعـدي وشـاحـا
تـرك الـغيـور بعض جلدة زنـده وأمـال اعـطافـاً عـليّ مـلاحـا
فـفعلت مـافعـل المشـوق بليلة عـادت لـذاذتهـا عـليّ صبـاحـا
فـاذهب بـظنـك كيف شئت وكله ممـا اقتـرفت لـذاذة وجـاحـا[42]

(٤١) معجم البلدان ٤ / ١٤٤.
(٤٢) اشعار الخليع ٣٨ ـ ٣٩.

ولم يقف الحسين عند حد في طلب المتعة، ولم تطب له الحياة في دير دون آخر، فمعظم الاديرة تعودت على انغامه، واعتادت لياليه.

وفي دير (عمر نصر) او (عمر) او (قلاية العمر) من اديرة سامراء يقول:ـ

«اصطبحت انا واخوان لي في (عمر) بسرّ من رأى ومعنا أبو الفضل رذاذ، وزُنام الزامر، فقرأ الراهب سفراً من أسفارهم حتى طلع الفجر، وكان شجيّ الصوت، ورجّع من نغمته ترجيعاً لم أسمع مثله، فتفهمه رذاذ وزنام، فغنى ذلك عليه، وزَمّر هذا فجاء له معنى اذهل العقول، وضجّ الرهبان بالتقديس، فقلت:ـ

ياعمر نصر لقد هيّجتَ ساكنةً	هاجت بلابل صب بعد اقصار
لله هاتفةٌ هيّت مرجعةً	زبور داود طوراً بعد اطوار
لما حكاها نام في تفننها	وافتن يتبع مزموراً بمزمار
عجت اساقفها في بيت مذبحها	وعجّ رهبانها في عَرْصة الدار
خمار حانتها ان زرت حانته	أذكى مجامرها بالعود والغار
تلهيك ريقته عن طيب خمرته	سقياً لذاك جنىً من طيب خمار[43]

وأدب الدير ادب جم، مليء بالمرح والدعابة والفكاهة، كما ان فيه انفتاحاً للشاعرية، وتجدداً في الاساليب الشعرية بفضل الحياة التي يحياها الشعراء هناك في جو من الالفة والمحبة، والمطارحة، والتخالع في غير فاحشة، بل صراحة في القول، كما يقول شاعرنا في (حانة الشط) التي كان يرتادها الواثق:ـ

ياحانة الشط قد اكرمت مثوانا	عودي بيوم سرور كالذي كانا
لاتفقدينا دعابات الامام ولا	طيب البطالة اسراراً واعلانا
ولاتخالعنا في غير فاحشة	اذا يطربنا الطنبور احيانا
سقياً لشكلك من شكل خصصت به	دون الدساكر من لذات دنيانا
حفت رياضك جنات موردة	في كل مخترق نهراً وبستانا
لازلت آهلة الاوطان عامرة	بأكرم الناس اعراقاً واغصاناً[44]

(٤٣) المصدر نفسه ٥٨ ـ ٥٩.

(٤٤) اشعار الخليع ١١٧.

وهذا الذي نظمه الحسين بن الضحاك، وغيره من الشعراء، الذي اطلقنا عليه اسم (ادب الدير) صورة صادقة تمثلت فيها جوانب لاهية من حياة المجتمع العباسي، واوقفتنا امام تطورات حضارية جديدة اخذت طريقها الى الادب العربي، فهزته موجاتها المتدفقة، فتفاعل واياها، فلانت التعابير، ورقت الالفاظ، واضحت المعاني في متناول الشعراء وهم في خدرهم، بعد ان وقفوا عند ابواب حضارة مشرقة وانت بني العباس في ازهى عصورهم.

الشاعر في رحاب الخلافة:

١ ـ شاعر الخلافة العباسية:ـ

في قصور الخلافة العباسية، وقرب حافات الانهر والجداول، ومع اشراقة شمس الحضارة على بغداد حاضرة الدولة العباسية تفتحت بشائر النهضة، وامتزجت الوان الثقافة الوافدة اليها من اجناس مختلفة حملت معها عاداتها وتقاليدها، واسهمت في بناء الحضارة الجديدة اسهاماً واضحاً كان له اثر كبير في الحركة الادبية والعلمية.

ومن نتائج هذا التمازج الحضاري التأم شمل الشعراء، وتوافدوا على بغداد واتصلوا بذوي الشأن فيها، فأكرموا، واجزل لهم العطاء، وكان للخلافة شأن في النشاط الفكري الذي اولته عناية خاصة. فتسابق الشعراء الى قصورهم يحدوهم الامل بالحصول على المال والحظوة عند الخليفة، والولاة وغيرهم من العوائل التي برزت هناك، فاختصت كل جماعة بشاعر اقترن اسمه بها. وان كنا لانرى ذكراً للبرامكة في شعر الحسين بن الضحاك بالرغم من كونه من الموالي ـ كما يرى بعض المؤرخين ـ ولعل لمجيئه المتأخر الى بغداد سبباً في عدم ذكرهم في شعره، والمعروف انه جاء الى بغداد في نهاية عهد الرشيد، ولم يتصل به، والذي نرجحه ان الخليع لم يكن محبباً لدى الرشيد لخلاعته، وورع الرشيد، وان كان قد اتصل بابنه صالح[٤٥].

وللحسين شعر قرىء في حضرة الرشيد، فقد ذكر ابن السراج[٤٦] هذه الابيات مما انشد امام الرشيد، وان كان قد نسبها لاعرابي:ـ

لا وحبيبك لاأصا ... فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ... ح وان كان موجعا
كبدي في هواك اسـ ... ـقم حسن ان تقطعا
لم تدع سورة الهوى ... للبلى فيّ مطمعا

(٤٥) الاغاني ٦ / ٣٨٠.
(٤٦) مصارع العشاق ٢ / ٢٩٣.

كما ذكر الخطيب البغدادي[47] بيتين آخرين انشدا امام الرشيد بدون نسبتهما للحسين بن الضحاك، وهما:

اذا شئت ان تلقى اخاك معبساً وجداه في الماضيين كعب وحاتم
فكشفه عما في يديه فانما يكشف اخبار الرجال الدراهم

واوردهما ثعلب في مجالسه[48] بدون اشارة الى الحسين كذلك، مع ذكر قصة الاصمعي مع الرشيد، وكيف حصل بهما على الفي دينار، وما كانا عنده يسويان درهمين. ورواهما الامدي[49] ايضا ونسبهما للخليع.

كل ذلك يؤيد ماذهبنا اليه من عدم اتصاله بالرشيد، وعدم ذكره للرشيد في شعره. وان انشد شعره عند الرشيد غير انه لم ينسب اليه، ولعل ذلك لجهلهم بانه له، او علمهم بعدم اتصاله بالرشيد لسبب ما فأغفلوا نسبته إليه.

وفي الوقت الذي نجده بعيداً عن البلاط العباسي زمن الرشيد، نجد الخلفاء بعده «يبحثون عنه، ويحرصون على عشرته ويبذلون في ذلك غير قليل من الالحاح والعطاء. وكان شعره او اكثره مرآة لحياة القصر في ايام طائفة غير قليلة من الخلفاء»[50].

ومايظهر في شعره من مدائح، وذكر للخلفاء كالامين، والمعتصم، والواثق والمتوكل يرسم صورة حقيقية لعالم الحياة العباسية، بل للطبقة الحاكمة بصورة خاصة، لانه «كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً، يعاشرهم، ويرافقهم، ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل اكثر مما ينبغي»[51].

وهو في مرافقته للخلفاء لم تكن علاقته بمن يصحبه منهم علاقة شاعر بسيده، وصاحب نعمته، بل علاقة صديق بصديقه، ونديم بنديمه لذلك فهو لايتورع من ذكر الفواحش الخليعة في مجالس الخلفاء. بل تغزل بغلمانهم وجواريهم، وبحضورهم انفسهم، وربما كان ذلك لاجلهم وبناء على طلبهم.

(٤٧) تاريخ بغداد ١٤ / ٩.
(٤٨) مجالس ثعلب ٢ / ٣٥٥.
(٤٩) المؤتلف والمختلف ١٦٢.
(٥٠) حديث الاربعاء ٢ / ١٧٤.
(٥١) المصدر نفسه.

٢ - المخلوع في شعر الخليع:-

كان محمد الأمين الخليفة المخلوع أول خليفة عباسي خلد في شعر الحسين بن الضحاك، بنفس صريح، وشعور صادق، وعاطفة تخالف صراحتها، وقوة دفقها ماقاله فيمن اتصل بهم من الخلفاء. فالحسين اثر قدومه الى بغداد وبعد ان سبقه إليها زميله ابو نواس اتصل بالامين، وهو يوم مجيء الحسين كان شاباً وسيماً، بطفح بالبشر، وروح الدعابة.

وقد اشار السمعاني[٥٢] إلى ان صحبته للأمين بدأت عام ١٨٨ هـ، في حين حددها ياقوت[٥٣] بعام ١٩٨ هـ، وهذا خطأ لايقرّه الواقع لكون الامين قتل هذا العام (اي ١٩٨ هـ) فأين اتصاله بالامين قبل توليه الخلافة؟ وكيف خلف لنا هذه الثروة الشعرية الواسعة في رثائه اذا لم يكن اتصاله به الا في عام مصرعه! ولمن قيلت تلك القصائد التي ذكرت حصار بغداد عام ١٩٧ هـ.

لاشك ان ذلك خطأ من ياقوت او عن نساخ معجمه، ولعلهم ارادوا ان يقولوا عام ١٨٨ فأثبتوه عام ١٩٨.

ان حياة الامين اثرت تأثيراً بالغاً في حياة الحسين لما كانت تتجلى فيها بوادر اللهو والمرح قبل خلافته خلالها. فاذا ماعلمنا ان شاعرنا لازمه وشايعه، وكان من اخلص اصدقائه، فانما نعرف ان هناك رباطاً مقدساً عقد بين حياتهما المتسمة بالمرح والدعابة. وربما كان حظ كل منهما مساوياً للآخر في الجانب اللاهي من الحياة لولا تفوق الخليع على المخلوع بالشاعرية. ومع هذا التلازم، وهذه الرفقة لم تسعفنا المصادر بشعر كثير قيل في الامين وهو حيّ إلا في ايام حصار بغداد اي في عامي ١٩٧، و١٩٨ هـ، وهذا مايفسر بالضياع الذي حل بشعره، واختلاط شعره بشعر غيره ان قصداً وبغير قصد. ومن اقواله في الحصار الذي ضربه الطاهريون على بغداد عام ١٩٧ هـ:

أتُسرعُ الرحلة اغذاذا عن جانبَيْ بغداد أم ماذا؟
أما ترى الفتنة قد الفتْ إلى أولي الفتنة شذّاذا
وانتقضتْ بغدادُ عمرانها عن رأي لاذاك ولا هذا
هَدْماً وحرقاً قد أباد أهلها عقوبة لاذت بمن لاذا
ما أخشن الحالات ان لم تُعُد بغداد في القُلّةِ بغداذا[٥٤]

---

(٥٢) الانساب ٢٠٦.
(٥٣) معجم الادباء ١٠ / ٦.
(٥٤) اشعار الخليع ٥١.

وقد علق على البيت الاخير المستشرق الانكليزي لسترانج[٥٥] بقوله:
«ويتبين ماذكر الطبري في الدمار الذي قاسته بغداد خلال الحصار العظيم في عهد الخليفة الامين، انها كما تظهر كانت تمثل اسم بغداد في العهد الفارسي، او المجوسي ازاء بغداد الاسلامية».

فهو يصف حالة بغداد، وماعانته على ايدي الشذاذ الذين رأوا في الوقيعة بين الاخوين فجارة لهم في الهدم والحرق والتخريب لينتقموا من الخلافة الاسلامية باسمها، ومن السلطان العربي باسم المأمون.

ثم يذكر الوقعة التي كانت على اصحاب طاهر لقصر صالح، وفيها يشد من ازر الامين، و يذكر النصر المؤقت الذي احرزه في البداية، مع الاشارة الى الهزيمة التي لحقت به:

امين الله شق بالله تعط العزّ والنصرهْ
كل الامر الى الله كلاك الله ذو القدرهْ
لنا النصر باذن الله والكرة لا الفره
وللمُرّاق اعدائك يوم السوء والدبره
وكاس توردُ الموت كريهٌ طعمُها مُرّه
سقونا وسقيناهم فكانت بهم الحره
كذاك الحرب احياناً علينا ولنا مُرّه[٥٦]

في القصيدة موقف شجاع من الشاعر لنصرة الخليفة المهزوم، كما فيها تشجيع على المضي في سبيل الدفاع عن بغداد، والتجلد عند المحن، دون خوف او وجل من العدو الذي اصبح النصر قريباً منه، بعد تأكد الناس من خيانة قواد الامين، وانصرافهم الى المأمون، وخطة آل طاهر المحكمة في تضييق الخناق على بغداد، وقطع الميرة عنها.

انه إيمان الشاعر بالولاء المطلق للخليفة، الايمان الذي جعله اكثر اندفاعاً لتأييد شرعية الخلافة بالرغم من اقتراب خطى الموت من الخليفة بعد ان ضعف امره، وايقن بالهلاك المحتم، وقد هرب قائده عبد الله بن خازم بن خزيمة من بغداد بعد ان حاول

---

(٥٥) Baghdad during the Abbasid Caliphate. p. 10 وانظر تاريخ الطبري ١٧٥.
(٥٦) اشعار الخليع ٦٦ ـ ٦٧.

الغوغاء الايقاع بينه وبين الامين، وتحامل الامين عليه، فقد هرب ليلاً هو واولاده وعياله بسفينة الى المدائن، وأقام فيها، ولم يحضر القتال، ولعله خاف نفوذ الطاهريين بعد تحذيرهم إياه، فنجا من تلك الفتنة، وبذلك تضعضع مركز الامين.

وفي حوادث ١٩٨ هـ يشير الحسين الى قطع خزيمة جسر دجلة ببغداد بقوله :-

علينا جميعاً من خزيمة منّة ... بها احمد الرحمن ثائرة الحرب
تولى امير المؤمنين بنفسه ... فذب وحامى عنهم اشرف الذب
ولولا ابو العباس ما انفك دهرنا ... يبيت على عتب ويغدو على عتب
خزيمة لم ينكر له مثل هذه ... اذا اضطربت شرق البلاد مع الغرب
اناخ بجسري دجلة القطع والفنا ... شوارع والارواح في راحة العضب
فكانت كنار ماكرتها سحابة ... فأطفأت اللهب الملفف باللهب
بلاء ابي العباس غير مكفر ... اذا فزع الكرب المقيم على الكرب[٥٧]

وشعر الحسين في الامين جميعه رثاء حار مشبوب العاطفة عدا ماقيل من ثناء عليه في حياته مما لانستطيع التمثيل له لضياعه غير انا نعتقد انه لايخرج عن هذا الباب.

فمما جاء من جياد مراثيه في الامين قوله :-

اعزي ياحمد منك نفسي ... معاذ الله والايدي الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا ... ودوفع عنك في يوم الحسام
كأن الموت صادف منك غنماً ... او استشفى بقربك من سقام[٥٨]

وفي الابيات غمز بالمأمون، ولوعة بالامين، مع قوة سبك، وصفاء لفظ، واختيار المعنى الموفق، والاندفاع المباشر في الغرض الرئيس ثم التحول الى الغرض الآخر وهو مرتبط بالاول، حيث جمع بين المعاني المتضادة، اعني الرثاء والهجاء او الدعاء بالموت للخصم.

والحسين بقي على موقفه من المأمون، كما بقي على حبه من عهد الامين وربما قيل انه خولط ودعا ان يظهر الامين ليزيح المأمون عن بغداد بعد ان يتم له جمع اعوانه ولم

(٥٧) اشعار الخليع ٥٨ ـ ٥٩.
(٥٨) الاغاني ٦ / ٢٦٧ ونسبت لابي نواس في ديوانه بتحقيق عبد المجيد الغزالي ٥٧٨.

شملهم خارج بغداد، وهذا ماجعل المأمون يقف من الحسين موقفاً حازماً في عدم اعادته الى قصور الخلافة طوال مدة خلافته.

وظل الخليع يعيش على ذكرياته السالفة، ويتحدث عن صديقه الشهيد فلا يقر له قرار، ولا تأخذه سنة من نوم مادام ذلك النجم قد هوى من عليائه، وتوالت المحن والنكبات على انصاره:-

سألونا ان كيف نحن فقلنا من هوى نجمه فكيف يكون
نحن قوم اصابنا حدث الدهر فظلنا لريبه نستكين
نتمنى من الامين ايابا لهف نفسي واين مني الامين[٥٩]

وهكذا يظل الشاعر في محرابه القديم لايتحول عنه، وكيف يتم له ذلك وهو الذي قال في المأمون:-

فلا فرح المأمون بالملك بعده ولازال في الدنيا طريداً مشرداً

وكيف ينسى لوعته، وحرقة فؤاده على (امينه) وقد اعوز من بعده الخلف:-

هلا بقيت لسد فاقتنا ابدا وكان لغيرك التلف
قد كان فيك لمن مضى خلف واليوم اعوز بعدك الخلف[٦٠]

٣ - الحسين والمأمون:-

بعد تلك الاحداث الدامية التي اهتزت لها بغداد، فذاقت على ايدي الغزاة من الدمار والخراب ماذاقت، نراها تحتضن الطاهرين بعد ان آلت الخلافة الى المأمون، فيتوافد الناس الى مقر الخلافة وهم يلهجون بالشكر والثناء على الرجل الذي انقذهم من التمزق الذي حل بالامة في نهاية عهد الامين نتيجة الفتنة، واستبشاراً بالعهد الجديد الذي املوا فيه خلاصهم من الفرقة.

ومن بين هذه الجموع المحتشدة عند ابواب القصر برز جماعة من الشعراء فوهبوا خليفتهم كل ماجادت به قرائحهم من مبالغات في التعظيم شأنهم في ذلك مع كل خليفة جديد.

(٥٩) اشعار الخليع ١١٠.
(٦٠) اشعار الخليع ٧٩.

وقد بقي الحسين مترفعاً عن تقدم الطاعة الى المأمون ضاناً بشعره عليه، مخلصاً للامين حتى اعيته الفاقة، ففكر في الطريق التي توصله اليه، فوجد في صالح بن الرشيد، وهو اول من اتصل بهم من ابناء الرشيد، ضالته. وراح صالح يوماً الى المأمون، ورجاه ان يستمع الى هذين البيتين:ـ

حمدنا الله شكراً اذ حبانا بنصرك يا أمير المؤمنينا
فأنت خليفة الرحمن حقاً جمعت سماحة وجمعت دينا[٦١]

فقال له المأمون: لمن هذان البيتان ياصالح؟ فقال: لعبدك ياامير المؤمنين حسين بن الضحاك.

قال: قد احسن.

فقلت: وله يا امير المؤمنين اجود من هذا.

فقال: وما هو؟

فأنشدته قوله:ـ

رأى الله عبد الله خير عباده فملكه والله اعلم بالعبد
الا انما المأمون للناس عصمة مميزة بين الظلالة والرشد

قال: فأطرق ساعة ثم قال: ماتطيب له نفسي بخير بعدما قال في اخي محمد:ـ

اطل حزناً وابك الامام محمدا بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تمت الاشياء بعد محمد ولازال شمل الملك فيه مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولازال في الدنيا طريداً مشرداً

ويذكر ابن الاثير[٦٢] ان المأمون احضر الحسين بن الضحاك يوماً فقال له:ـ

هل رأيت يوم قتل اخي هاشمية قتلت، وهتكت؟ قال: لا. قال:

فما قولك:ـ

---

(٦١) اشعار الخليع ١١٩.

(٦٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٠٤.

وممـا شجى قلبي وكفكف عبـرتي محـارم من آل الـرسـول استحلت
ومهتوكـة بـالخلق عنهـا سجـوفهـا كعـاب كقرن الشمس حين تبـدت
اذا خفـرتهـا روعـة من منـازع لهـا المرط عـادت بـالخشـوع ورنت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة سلبتهـا بعد ان غمرتني، واحسان شكرته فانطقني، وسيد فقدته فاخلقني. فان عاقبت فبحقك، وان عفوت فبفضلك. فدمعت عينا المأمون، وقال: قد عفوت عنـك، وامرت بـادرار ارزاقـك عليك، وعـطائك مـافاتـك متمماً، وجعلت عقـوبة ذنبـك امتنـاعي من استخدامك.

غير ان ابن الاثير[٦٣] يقول بعد ذلك: «ثم ان المأمون رضي عنه وسمع مديحه». واشار الى ذلك محمد كرد علي في حديثه عن «اخلاق الشعراء»[٦٤].

فان دل ذلك على شيء فانما يدل على التسامح المطلق الذي ابداه المأمون تجاه خصومه السياسيين، واستماعه لاقوال المعارضة، كان ذلك في بداية عهده، وبفعل ضغط الطاهريين عليه.

ويبدو ان الفاقة التي حلت بالشاعر هي التي جعلته يطرق الابواب لاستجداء رضا المأمون، فقد مدح الحسن بن سهل من اجل ذلك:-

ارى الآمـال غـير مـعـرجـات عـلى احـد سـوى الحسن بن سهـل
يبـاري يـومَـه غـده سـمـاحـاً كـلا اليـومـين بـان بكـل فضـل[٦٥]

وبعد عجز الحسن بن سهل عن ذلك، ادار الحسين وجهه الى شخصية اخرى أمّلَ فيها ماكان يأمله في الحسن بن سهل، ذلك هو عمرو بن مسعدة، فقد ذكر ابو الفرج الاصفهاني[٦٦]: «اخبرني الحسن بن علي، قال حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه، قال حدثني ابي قال: لما اعيت حسين الضحاك الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مسعدة وكتب اليه:-

(٦٣) الكامل ٦ / ٢٠٤.
(٦٤) مجلة المقتطف م ٣٠ ابريل ١٩٠٥ ص ٢٧٢.
(٦٥) الاغاني ٦ / ٣٦٤، ومعجم الادباء ١٠ / ١٦.
(٦٦) المصدر نفسه.

انت طودي من بين هذي الهضاب وشهابي من دون كل شهاب
انت ياعمرو قوتي وحياتي ولساني وانت ظفري ونابي

الى ان يقول :-

أنا في ذمة السحاب وأظما إنّ هذا لوصمة في السحاب
قم الى سيد البرية عني قومةً تستجير حسن خطاب
فلعل الاله يطفيء عني بك ناراً على ذات التهاب

فلم يزل عمرو يلطف للمأمون حتى اوصله اليه وادر ارزاقه .

وادرار الارزاق شيء، وعودته الى منادمة الخليفة شيء اخر، فهو لايريد الا العيش في رحاب الخلافة، والمأمون ان رضي عنه، وعفا عما فات من هجائه اياه لخلقه وعطفه غير انه لم ينس اقوال الحسين المرة فيه، ولهذا ظل بعيداً عن مجالسه. فلم يترك باباً الا طرقه ظناً منه ان المأمون سيعيده الى ماكان عليه الامين، ولكن لم يحصل شيء من هذا القبيل.

وهكذا كتب القدر لهذا الشاعر الفحل الذي يقف في الطبقة الاولى من شعراء العصر العباسي ان يبقى فترة من الزمن في زوايا النسيان في حين ينعم سواه بعطايا الخليفة، وهباته الطائلة، وهم اقل منه شأناً وحظاً في الملكة الشعرية الا انهم اوطأ منه هامة في الاستجداء، وان تطامن فيما بعد غير ان الركب قد سبقه وحل في موضعه.

ويظل صوت الحسين خافتاً طوال عهد المأمون في الوقت الذي ترتفع اصوات صحبه.

٤ ـ عودة الى بغداد:

ولم تكد تنتهي ايام المأمون، وترفع الحجب التي حالت بينه وبين بغداد، حتى يتهلل وجهه فرحاً بالبشرى بميلاد عهد جديد، يعيد فيه مافاته خلال عهد الحرمان.

وما أن تربع المعتصم على كرسي الخلافة حتى شعر بالحاجة الى الشعر الذي يملأ نفسه بالظرف والدعابة، ويحبب اليه الحياة الوادعة بلا صخب مفتعل كما يفعل بعض

الشعراء، مما حدا به الى ان يبعث رسله للعودة بالحسين بن الضحاك الى بغداد.
وما أن حل الشاعر ببغداد حتى توجه الى البلاط العباسي حاملاً معه آيات التقدير والولاء المنبعث من الضمائر قبل الاكف:-

هلا رحمت تلدّد المشتاق ومَنَنْتَ قبل فراقه بتلاق
إن الرقيب ليستريب تنفسي الصعدا اليك وظاهر الاقلاق

الى أن يقول:-

خير الوفود مبشر بخلافة خصت ببهجتها ابا اسحاق
واقته في الشهر الحرام سليمة من كل مشكلة وكل شقاق
اعطته صفقتها الضمائر طاعةً قبل الاكف بأوكد الميثاق[٦٧]

ويمضي في المديح، واسباغ صفات الحلم، والتقوى، والبطش، والشجاعة، وجميع الصفات التي يمتلكها الامام الحازم، والخليفة الورع، والقائد البطل، محذراً المراق من هذا الرجل الجريء، والضيغم الذي سيحطم اعناق مناوئيه. وفي القصيدة كذلك وصف رائع لمشاهد الحروب مع الروم في الثغور القريبة من البيزنطيين:

حتى اذا ام الحصون منازلاً والموت بين ترائب وتراقي
هرت بطارقها هرير ثعالب بُدِهَتْ بزأرِ قساورٍ طُرّاقِ
هربت واسلمت الصليب عشية لم يبق غير حشاشة الارماق

وبعد فراغه من انشاد القصيدة امره المعتصم بالدنو منه، فاقترب، فملأ فاه جواهر من جوهر كان بين يديه، ثم امره ان يخرجه من فيه، فأخرجه، وامر ان ينظم ويدفع اليه، ويخرج الى الناس وهو في يده ليعلموا موقعه من رأيه، ويعرفوا فعله. فكان احسن مامدح به يومئذ[٦٨].

(٦٧) اشعار الخليع ٨٣ - ٨٤.
(٦٨) الاغاني ٦ / ٣٦٩.

كان هذا اول فيض من خزانة الدولة في عهد المعتصم حصل عليه الخليع. فقد امر له المعتصم بألف درهم لكل بيت وقال له: انت تعلم ياحسين ان هذا اكثر ما مدحني به مادح في دولتنا[٦٩]. فقبل الارض بين يديه وشكره وحمل المال معه، ليعود اليه متى شاء.

وتم للحسين ما اراد من تجديد ايام السرور والعودة الى موقعه في نفوس الخلفاء. وهناك روايات كثيرة عن سلوكه شاعراً ونديماً للمعتصم لا مجال لذكرها هنا، ونكتفي الاشارة الى بعض منها لبيان الحالة التي اضحى فيها الشاعر. فهو يستطيع ان ينال رضا المعتصم في حالات غضبه عليه اذ يكفي ان يقول له:ـ

غضب الامام اشد من ادبه ... وقد استجرت وعذت من غضبه
اصبحت معتصماً بمعتصم ... اثنى الاله عليه في كتبه
لا والذي لم يبق لي سبباً ... ارجو النجاة به سوى سببه
مالي شفيع غير رحمته ... ولكل من اشفى على عطبه[٧٠]

كان الحسين مؤرخاً لحوادث ايامه، ووقائع القادة بالاعداء، ومشاركة الخلفاء انفسهم في المعارك، ووقيعة بعض الخلفاء بقوادهم، فهو لم ينس بطش المعتصم ببابك الخرمي، ويتمنى ان يلحق به (توفيل)، غير انه لم يخبرنا بطش الخليفة بقائده الافشين.

ومن الوقائع التي ذكرها وقعة عمورية بقوله:ـ

اثبت المعصوم عزاً لابي ... حسن اثبت من ركن اضم[٧١]

والمعصوم هو المعتصم، وابو حسن هو الافشين.

وحينما اختط المعتصم مدينة سامراء، واقطع الاراضي للأهلين، طلب الحسين منه داراً فأجيب الى طلبه، واقطع داراً مجاورة لدار الخليفة، وفي ذلك يقول:

(٦٩) المصدر نفسه ٦ / ٣٧٠.
(٧٠) الفرج بعد الشدة ١ / ٧٥ ومعجم الادباء ١٠ / ٢٢.
(٧١) تنظر القصيدة في اشعار الخليع ٩٩ ـ ١٠٠ وهي في تاريخ الطبري ١٠ / ٣١٣ والتنبيه والاشراف ١٤٤.

يـا امـين الله لاخـطة لي ولـقـد افـردت غـيـري بـخـطـط
انـا في دهـيـاء مـن مـظلمـة تحـمـل الشـيـخ عـلى كـل غـلط
بـوّئي مـنـك كـما بـوأتهـم عـرصـة تبسط طـرفي مـا انبسط
ابتني فيـهـا لـنفـسي مـوطـنـا ولـمـقـبي فـرطـاً بـعـد فـرط
لم يـزل مـنـك قـريـبـا مـسكـني فـاعـد لي عـادة الـعـرب فقط[٧٢]

فأقطعه الدار، واعطاه الف دينار لنفقته عليها.

ومن اطرف مايروى عن علاقة الشاعر بالمعتصم ماذكره الشابشتي[٧٣] خلال حديثه عن المعتصم انه كان في احدى نزهاته قد احتاج الى عبور نهر، وكان معه الحسين بن الضحاك، فكاد ان يغرق فقبض المعتصم على عضده وحمله من السرج حتى عبر به النهر اشفاقاً عليه.

٥ ـ في قصر الواثق:ـ

ومع انتقال الخلافة الى الواثق ينتقل ولاء الحسين الى الخليفة الجديد الذي صحبه ايام ابيه المعتصم، وكان من المقربين اليه، فلا غرابة ان يجمع الشاعر بين المواساة والتهنئة في اول قصيدة يلقيها بحضرة الخليفة الجديد حين قال:ـ

ألم يـرع الاسـلام مـوت نـصيـره بلى حق ان يرتـاع من مات نـاصره
سيسليك عـما فـات دولـة مفضـل اوائـلـه مـحـمـودة واواخـره
ومـا قـدم الـرحمن الا مـقـدمـا مـوارده مـحـمـودة ومـصـادره[٧٤]

فما كان من الواثق الا ان قال: «ان كان الحسين لينطق عن حسن طوية، ويمدح بخلوص نية». [٧٥].

ثم امر ان يعطي لكل بيت قاله من تلك القصيدة الف درهم. ويبدو ان شعره قد

(٧٢) تنظر القصيدة في اشعار الخليع ص ٧١.
(٧٣) الديارات ٣٦.
(٧٤) اشعار الخليع ٥٨.

اكتسب تسعيرة خاصة لدى جميع ممدوحيه. اذ لاحظنا ذلك في جميع مادحه بانه يعطى لكل بيت الف درهم، واحيانا الف دينار للقصيدة الواحدة.

والحديث عن الحسين بن الضحاك وعلاقته بالخلفاء حديث عن صدق المشاعر في الامتزاج بحياة القصور، ومايجري فيها من جد وهزل، كما تمثل جوانب المجتمع العليا او القائدة التي ترسم سياسته، وربما تشارك في الجانب اللاهي من الحياة. والشاعر يعمد الى تصوير مايراه مقبولاً لدى اولياء نعمته، فللمديح قسط كبير من شعره، كما لوصف الرياض واماكن المتعة مساحة في الشعر واسعة.

دخل الحسين مرة على الواثق، فقال له الواثق: «قل الساعة ابياتاً ملاحاً حتى اهب لك شيئاً مليحاً»[٧٥]. فما كان من الحسين الا ان استفسر من الخليفة في اي معنى يقول. فأجابه: «فيما شئت بما ترى بين يديك». فرأى الحسين بساطاً قد تفتحت انواره، واشرق في نور الصبح، فقال:

الست ترى الصبح قد اسفرا ومنسكب الغيث قد امطرا
واسفرت الارض عن حلة تضاحك بالأصفر الاحمرا
وتعمل كأسين في فتية تطارد بالاصغر الاكبرا
بحث كؤوسهم مخطف تجاذب ارداقه المئزرا
فكل ينافس في بره ليفعل في ذاته المنكرا

فضحك الواثق وقال: تستعمل ماقلت ياحسين الا الفسق فلا ولاكرامة... الخ[٧٦].

واقبال الشعراء على الانغماس في الجانب اللاهي من الحياة لايعني ازالة الحدود المرسومة بينهم وبين اولياء نعمتهم، وخاصة الخلفاء، لقد كان جواب الواثق واضحاً في الرد على الحسين بلطف وإنكار، وهو موقف املته عليه سدة الخلافة، وهيبتها.

ومن جيد قوله في الواثق هذه الابيات وهي من قصيدة رائعة تعبر عن اسلوبه في الطرد، فقد ذكر انه كان مع الواثق بالقاطول حين خرج للصيد فصاد صيداً حسناً من الاوز والدراج وطير الماء وغير ذلك. ثم عاد الى الشرب والغناء والتف حوله المغنون والجلساء فقال الحسين:-

---

(٧٥) الاغاني ٦ / ٣٧٣.
(٧٦) شرح المقامات ١ / ٢٨٢.
(٧٧) المصدر نفسه.

سقى الله بالقاطول مسرح طرفكا وخص بسقياه مناكب قصركا

حتى اتى على قوله :-

تحنّ للدراج في جنباته وللغر آجال قدرن بكفكا
حتوفا اذا وجهتهن قواضبا عجالاً اذا اغريتهن بزجركا
ابحت حماماً مصعداً ومصوباً ومارمت في حاليك مجلس لهوكا

وفيها يمدح الواثق :

خلقت امين الله للخلق عصمة وامنا فكل في ذراك وظلكا
وثقت بمن سماك بالغيب واثقاً وثبت بالتأييد اركان ملككا[٧٨]

فطرب الواثق، وضرب الارض بمخصرة كانت في يده، وقال: لله درك ياحسين! ما أقرب قلبك من لسانك. فقال له: يا أمير المؤمنين: جودك ينطق المفحم بالشعر، والجاحد بالشكر، فقال له: لن تنصرف الا مسروراً، ثم امر له بخمسين الف درهم.

وجل شعر الحسين في الواثق جيد وصريح، يفيض بالشكر، وينطق بالولاء، فيه رقة وعذوبة افنى فيها حياته من اجل ممدوحيه:

اذا كنت من جدواك في كل نعمة فلا كنت ان لم افن عمري بشكركا

٦ ـ مع المتوكل :-

ويحل المتوكل في دار الخلافة بعد اخيه الواثق، ويبقى الحسين على حاله في تصوير الاحداث، وتقلبات الزمان، يسجلها في شعره، وهو الذي ينقل لنا صفحات من تاريخ الخلافة العباسية، مليئة بالتطورات، والصراع على السلطة، والحروب التي خاضتها الدولة على الصعيدين الداخلي والخارجي. غير انه يصل الى مرحلة عهد المتوكل وقد بلغ او جاوز الثمانين من عمره، وكان المتوكل من المعجبين بشعره، وحسن ظرفه، وادبه.

(٧٨) اشعار الخليع ٨٩ ـ ٩٠.

وقد حكي عن الحسين انه قال: كنت عند المتوكل في يوم نوروز والهدايا تعرض عليه، فيها تماثيل من عنبر، وكان شفيع الخادم واقفاً، وعليه قباء مورد وهو فيهما من احسن الناس وجهاً، فجعل المتوكل يدفع الى شفيع قطعة قطعة من ذاك العنبر، ويقول: ادفعها الى حسين، واغمز يده، فيفعل ذلك. ثم كان آخر مادفع اليه وردة حمراء. يقول الحسين: حياني بها: فقلت:ـ

وكالوردة الحمراء حيا بأحمر ... من الورد يمشي في قراطق كالورد
له عبثات عند كل تحية ... بكفيه تستدعي الحليم الى الوجد
تمنيت ان اسقي بكفيه شربةً ... تذكرني ماقد نسيت من العهد
سقى الله عيشاً لم ابت فيه ليلةً ... من الدهر الا من حبيب على وعد

فأمره المتوكل ان يسقيه، وقال: قد اعطيناك امنيتك[٧٩].

يتبين من تلك الرواية معرفة الخلفاء باسرار شعرائهم، كما تنبىء تلك الروايات عن حياة الشعر في ظل الرعاية التي يوليها الخلفاء اياه، مهما اختلفت اغراضه وتعددت موضوعاته، بدون حرج او خوف من رقيب حتى ان كان الخليفة نفسه، لانهم ـ اي الخلفاء ـ لم يضعوا قيوداً على الشعراء تحدد الوان شعرهم.

ان ايام الحسين بن الضحاك التي اسلمته الى عهد المتوكل قد اوشكت على النفاد، فقد ولى عهد الشباب، وان بقيت حثالة من عهد الصبا، اوبريق من الصبابة، غير ان الخليفة يعرف ذلك، ويعلم ان شاعره قد اسلمته الايام الى عهد لايستطيع مجاراته لكبر سنه، مهما اظهر في اكثر وقته تجلداً وصبراً مجاراة للخليفة، ومجاملة له، وخوفاً من الحساد والمبغضين. وقد كتب الى المتوكل يستعفيه من الخدمة قائلاً:ـ

اسلفتُ اسلافك فيما مضى ... من خدمتي احدى وستينا
كنت ابن عشرين وخمس فقد ... وفيت بعضا وثمانينا
واني لمعروف بضعف القوى ... وان تجلدت أحايينا
وان تحملت على كبرتي ... خدمة ابناء الثلاثينا
وخفت ان يعجل بي معجل ... الى التي تعيي المداوينا[٨٠]

(٧٩) اشعار الخليع ٤٣.
(٨٠) اشعار الخليع ١٢١.

والشاعر هنا يحدد بالارقام مبلغ سنه ايام المتوكل، وفي قصيدة اخرى قالها ردا على بعض حساده، يشير الى انه بلغ التاسعة والثمانين، ويعتذر عن تلبية دعوة الخليفة له لكبر سنه، فبعث هذه الابيات الى المتوكل بعد ان سمع ان بعض من حضر مجلس المتوكل علم باعتذاره فقال: هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير، والسكر فيها، ويعجز عند خدمتك! يقول الحسين:

أما في ثمانين وفّـــيتها ... عـــذيرٌ وان انا لم أعتذر
وكيف وقد جزتها صـــاعداً ... مع الصاعدين بتسع أخر
وقد رفـــــع الله اقلامه ... عن ابن ثمانين دون البشر
فأن يقض لي عـــملاً صالحاً ... اثاب وان يقض نشراً غفر[٨١]

والشيخونة تبدو واضحة من خلال شعره الذي قيل في الفترة المتأخرة من حياته، فقد طبعته بطابعها البعيد عن نزق الشباب، وعبث الصبا، بل جاء اكثر ميلاً الى الورع والزهد، غير انه يقصر في هذا المجال عن زهد ابي نواس، وان كانا يمران بتجربة واحدة الا وهي الشعور بالندم على عهد مضى، وعمر بقيت منه بقية لاتقدر على محو آثار الخلاعة والمجون. ولهذا ابكى الحسين قبل ان ينشد هذين البيتين:ـ

اصبحت من اسـراء الله محتـبـأ ... في الارض نحـو قضاء الله والقـدر
ان الـثمـانـين اذ وفـيت عـدتهـا ... لم تـبق بـاقـيـة مني ولم تـذر[٨٢]

وكان آخر ماقاله في المتوكل ليلة اغتيل هو والفتح بن خاقان:ـ

إن الـلـيـالي لم تحـسـن الى احـد ... الا اسـاءت اليـه بعـد احـسـان
أما رأيت خطوب الدهر مافعلت ... بالهاشمي وبالفتح بن خـاقـان[٨٣]

---

(٨١) اشعار الخليع ٥٢ وفي ترجمته في الاغاني ٦ / ٤٤٤.
(٨٢) اشعار الخليع ٦٢ وفي ترجمته في الاغاني ٦ / ٤٤٤ ومعجم الادباء ١٠ / ١٤.
(٨٣) المصدر نفسه ١١٣ ومروج الذهب ٢ / ٣٩٥ وتاريخ الخلفاء ٢٣٦.

٧ ـ نهاية العهد:

كان عهد المتوكل بالنسبة للحسين بن الضحاك نهاية الحياة اللاهية، وبداية المأساة في شعره، فقد طغى عليه شعور رهيب بالخوف من النهاية، وصراع بين البقاء والفناء، وان كان فيه رقة وبقيا صبابة. اذ لم تكد تنقضي ايام المتوكل، ويحل عهد المنتصر حتى تجف قريحته، لان ملكته الشعرية وان اوصلته الى المنتصر لم تسعفه في الوصول الى المستعين.

قال في المنتصر لما ولي الخلافة:ـ

تجددت الدنيا بملك محمد فأهلاً وسهلاً بالزمان المجدد
لعمري لقد شدت عرى الدين بيعة اعز بها الرحمن كل موحد
هنتك امير المؤمنين خلافة جمعت بها اهواء امة احمد[٨٤]

وقد اظهر المنتصر اكرامه والسرور به وقال له: إنّ في بقائك بهاءً للملك، وقد ضعفت عن الحركة فكاتبني بحاجتك، ولاتحمل على نفسك بكثرة الحركة. ووصله بثلاثة آلاف دينار ليقضي بها ديناً بلغه انه عليه.

ان الالفاظ التي استخدمت في شعره في الفترة المتأخرة من حياته لم تكن عين المفردة التي استقبل بها الدنيا في مستهلها، فقد طغت على اسلوبه مسحة من الجلال، والايمان بالقدر، والدعاء بالخير، والصلاح، بعد ان كانت العاطفة، والوجد، والغرام، والخلاعة، مما يغلف اسلوبه الشعري.

وكان اخر ماقاله من الشعر هذه الابيات، وهي في المنتصر، وكان قد خرج ظهراً والناس من ورائه:ـ

ألا ليت شعري ابدر بدا نهاراً أم الملك المنتصر
إمام تضمن اثوابه على سرجه قمراً من بشر
حمى الله دولة سلطانه بجند الفضاء وجند القدر
فما زال مابقيت مدة يروح بها الدهر او يبتكر[٨٥]

---

(٨٤) الاغاني ٨ / ١٧١ ومعجم الادباء ١٠ / ١١.
(٨٥) اشعار الخليع ٥١.

شعر الحسين بن الضحاك:

عرفنا الحسين شاعراً مطبوعاً من شعراء العصر العباسي المجيدين، غنى على اوتار الشعر الوجداني ففاض رقة وسلاسة، واطرب النفوس، وعبر عن احداث عصره بشعر تتدفق منه العاطفة، وينبض بالاحساس العميق، فهو حسن الافتنان في ضروب الشعر وانواعه، كما انه من الطبقة الاولى من الشعراء العباسيين[٨٦].

وقد سبق اقرانه الى المعاني الجديدة التي ابدع فيها واجاد، حتى ان ابا نواس كان يأخذ معانيه في الخمر، واذا شاع له نادر في هذا المعنى نسبه الناس الى ابي نواس[٨٧].

واشعاره تخلو جملة من التكلف الذي نجده عند بعض الشعراء، كما اننا لانحس بالنفس الديني في شعره الا في اخريات ايامه وفي قصائد معدودة. لميله الى الخلاعة واللهو، وان «كان لشعره قبول ورونق»[٨٨].

إن ماوقفنا عليه من شعر الحسين لايمثل جميع ماقاله لان ماذكره ابن النديم[٨٩] يبلغ اضعاف ما اهتدينا الى معرفته، فقد اشار الى ان شعره يمكن جمعه في مائة وخمسين ورقة، اي مايقرب من ثلاثة الاف بيت، في حين ان ماوصل الى علمنا لايتجاوز ثمانمائة بيت، مثلت عصره اصدق تمثيل.

وهذه المجموعة من الشعر تنتظم جميع الاغراض التي اجاد فيها، وبلغ غايتها منها، وان كانت شاعريته قد تفتحت في سن متأخرة، فلم نسمع عن شعره قبل مجيئه الى بغداد، واتصاله بالامين عام ١٨٨ هـ، كما لم نحظ بالحصول على شعر يمثل نشأته في البصرة، سوى ماوجدناه له بعد عودته اليها خلال عصر المأمون.

وقد تناثر شعر الحسين بن الضحاك في كتب اللغة والادب والتاريخ والتراجم والبلدانيات، لذلك نجد المؤرخين يختلفون في نسبة بعضه الى الشاعر، كما يختلفون في رواية بعض مفرداته، وعلى اهمية ماذكر المؤرخون من شعر له لم يجمع شعره في ديوان خاص به، غير ان الاستاذ علي شلق يقول: «علمنا ان ديوانا ناقصا ظهر له منذ فترة»[٩٠] واظنه يشير بهذا القول الى مجموعة الاستاذ احمد فراج.

اما ماقيل عن تبذله وخلاعته، واسرافه في المجون فلا تقحمه في اختيار الفاظ فاحشة، الاسقطات قليلة لاتخلو منها دواوين شعراء الفترة التي عاش فيها. وهذه

---

(٨٦) وفيات الاعيان ١ / ١٦٩، والمتحل ٣١٩، وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣.
(٨٧) معجم الادباء ١٠ / ٥، الاغاني ٦ / ٣٦١، ودائرة معارف البستاني ٧ / ٤٥٨.
(٨٨) تاريخ اداب اللغة العربية - جرجي زيدان ٣ / ٩١.
(٨٩) الفهرست ٢٣٢.
(٩٠) القبلة في الشعر العربي ٦١.

جملة من الملاحظات على شعره:-

١ ـ لقد عاصر الحسين بن الضحاك البرامكة العائلة الفارسية التي نسجت حولها الاساطير في الكرم، وقد عرفت بميلها لبني جنسها وتشجيع الشعراء على مدحها والاشادة بفضائلها، بينما لم نعثر على اي ذكر لها في شعره، وهذا مايؤكد بعد الشاعر عن التزلف والتكسب بشعره من خلال الاتصال بالعوائل المعروفة بمواقفها المناوئة للعرب.

٢ ـ شعره في الامين صدر عن عاطفة مشوبة بالحب والولاء، قل ان نجد لها نظيراً لدى الاخرين، مما جعله في مواجهة جادة مع المأمون، ونزوحه الى البصرة طوال عصر المأمون.

٣ ـ معاصرته لابي نواس، واعتراف ابي نواس بأسبقية الحسين عليه، وخاصة في القول المبتكر في الخمرة، واعترافه بأخذ معانيه منه، يجعلنا نتساءل عن سبب تشتت شعر الحسين، وضياع اكثره، وعدم اهتمام ابن قتيبة، والبحتري، وابي تمام بشعره.

٤ ـ طول عمره، والفترة التي امضاها في خدمة الدولة العباسية، وفي القول في موضوعات الشعر المختلفة لاسيما الخمريات تستدعي ان يخلف تراثاً ضخماً الا اننا نرى العكس يصدق في ذلك، فما وصل الينا من شعره قليل بالنسبة الى شعر ابي نواس الذي عاصره ونادمه، ولم يتجاوز عمره خمسين سنة الا قليلاً في حين شارف الحسين على مائة سنة قضى اكثرها في قول الشعر.

٥ ـ كان الحسين بن الضحاك اقل شهرة من ابي نواس، كما كان اقل منه صدى في نفوس المؤرخين، وهو الذي سبق ابا نواس في الشعر الخمري، والغزل بالمذكر، وعاش في فترة ابي نواس، وبعد وفاته في قصور الخلافة حتى ايام المستعين حيث ودع الحياة، بينما شغل الحديث عن شاعرية ابي نواس مساحات واسعة من اهتمام المصنفين.

٦ ـ تذكر اغلب المصادر انه هاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه بينما لم تسجل اي بيت له في هجاء مسلم او هجاء مسلم له. ولعل ذلك ضاع مع مافقد من شعره.

٧ ـ اورد كل من ارخ للحسين اخباراً مطولة عن علاقته بالامين، الا اننا لم نعرف عن ذلك الشعر في الامين غير مناوعته تلك المصادر مقروناً بعام ١٩٧، ونحن نعرف ان صحبته للامين بدأت عام ١٨٨ هـ، ولايفسر ذلك الا بالضياع الذي حل بشعره.

٨ ـ لم اعثر في جميع شعره الذي احطت به علماً على رثاء لأحد اقربائه او اهله، بل حتى ولده (محمد) لم يرثه ببيت واحد، وهو الذي طلب من المتوكل ان يمنح زوجته واولاده داراً، وان يعيد اليهم اعطياتهم التي قطعت عنهم.

٩ ـ ومن الانصاف ان نقر ان الحسين بن الضحاك حفظ لنا في ثنايا شعره معالم الحياة العباسية في ترفها، وبذخها، وتفتحها للجديد، كما جاء في شعره الوصفي والخمري تصوير حالم لحياة الشعراء وكان صادقاً في ذلك، وكله ينعت بحسن استهلال، وسرعة خاطر. وان كان اغلبه مقطوعات قصيرة، لكنها تعبر عن روح متسامية، ونفس متألقة، وان كان فيه هدوء واطمئنان ربما لانجده في شعر صاحبه ابي نواس. «وانما كان الرجل فاسقاً لايجرد فسقه ولايظهره للناس عارياً كأبي نواس، كما انه لم يكن يحليه ولايزينه فيخلع عليه اثواب الورع والدين»[٩١].

كما حلق الشاعر في مسابح الخيال بفضل الطبيعة المشرقة والانغام السحرية وما كانت ترفل به بغداد من حلي زينتها الطبيعة العباسية، فابعدت عن الالفاظ البدوية الخشنة، وابدلت بها الفاظاً رقيقة تحمل جرس الحضارة، وعذوبة انسامها. فخرج في وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية النيرة، واشرك الوجود في نعيمه وتلذذه بها، كقوله في الثريا:ـ

ادر الكأس علينا ... ايها الساقي لنطرب
ماترى الليل تولى ... وضياء الشمس يقرب
والثريا شبه كأس ... حين تبدو ثم تغرب
وكأن الشرق يسقي ... وكأن الغرب يشرب[٩٢]

فنون شعره:ـ

اثبت الحسين قدمه في اغراض الشعر العربي كافة، ولكنه ابدى براعة خاصة في وصف مجالس الخمرة، والغزل الغلامي، يضاف الى هذا وذاك علو كعبه في المديح، وحرارته الصادقة في الرثاء. ولم يوفق في الهجاء لان نفسه لم تمل اليه، ولو اراد ذلك لما امتنع عليه. وهجاؤه ـ على قلته ـ لم يكن فاحشاً ولاطعاناً بالاعراض. ومن خلال شعره الخمري يبرز الوصف الجميل للطبيعة، وقد تخلل بعضه نفس صوفي غامض في بعض المواقف.

وهذا ايجاز وتعريف بتلك الاغراض:ـ

---

(٩١) حديث الاربعاء ٢ / ١٨١.
(٩٢) نثر الازهار ١١٢.

١ ـ المديح:

وهو «فن الاحترام والمحبة»[٩٣]، ومن فنون الشعر العربي القديمة، يبرز فيه المادح صفات الممدوح في غير تكلف ولارياء، ومن تلك الصفات الكرم والشجاعة والمروءة وحسن القيادة، وغيرها من الصفات الموروثة التي يعتز بها العربي، ويفاخر بامتلاكه اياها.

وما ذكرناه من علاقة الشاعر بالامين تظهر براعته في ابراز صفات الخليفة، غير اننا لم نعثر الا على قلة من هذا الشعر. كما ان مدحه للمأمون جاء صادقاً كذلك بعد ان عرف قدر الخليفة الجديد من ذلك قوله:ـ

رأى عبد الله خير عباده فملكه والله اعلم بالعبد

ويمكن ادراج شعره في المأمون في باب الشكوى والاعتذار، ولانريد هنا ان نعيد النصوص التي مثلنا بها اثناء البحث تجنباً للتكرار.

وأمادیحه للخلفاء تجري على وتيرة واحدة، معززة هيبة الخلافة، وسلطان الخليفة، مع الاشادة بورعه وتقواه، وحفاظه على الدين الى غير ذلك من الالفاظ.

وهو حينما يمدح القادة، لابد ان يذكر الخلفاء الذين شرفوهم بقيادة الجيش الاسلامي كقوله في الافشين:ـ

انما الافشين سيف سله قدر الله بكف المعتصم[٩٤]

وقد اقتصر في مديحه على الخلفاء، والقادة، والامراء ولم نجد له مدحاً لسواهم.

قال عنه ابن المعتز[٩٥] انه احد المغنين في الشعر جيد المدح، ينساب مديحه مع الموسيقي كما تنساب عقول الشاربين مع اوتار القيان، كقوله في بعض الملوك، ولعله المتوكل:ـ

سيبقى فيك مابعدي لساني اذا قنيت هدايا المهرجان
قصائد تملأ الآفاق مما احل الله من بسط اللسان
بها ينفي الكرى السارون عنهم ويلهو الشرب عن وتر القيان[٩٦]

---

(٩٣) الاسلوب ٨٨.
(٩٤) اشعار الخليع ٩٩ ـ ١٠٠ والطبري ١٠ / ٣١٣ والتنبيه والاشراف ١٤٤.
(٩٥) طبقات ابن المعتز ١٢٧.
(٩٦) اشعار الخليع ١١٣.

٢ ـ الرثاء:

الرثاء «فن الموت، ولغة الحزن، ومجال اليأس، ومعرض الوفاء»[٩٧] وفيه بين محاسن من رثاهم، ومعظمهم من الخلفاء، ورثاؤه الامين كان مشبوب العاطفة، ساخن المدامع، تسري موسيقى الحزن في جميع اوصال القصيدة:

اسفاً عليك سلاك اقرب قربةً مني واحزاني عليك تزيد[٩٨]

وفي معرض مديحه الامين كان يجمع بين الرثاء والهجاء، فهو يرثي الامين، ويدعو على المأمون بالتشرد والضياع:

فلا تمت الاشياء بعد محمد ولازال شمل الملك فيها مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولازال في الدنيا طريداً مشرداً

ليخفف من لوعته، ويشفي غليله من عدوه الذي سلبه نعمته بقضائه على الامين.

وكما ذكرنا انه لم يمدح غير الخلفاء والامراء والقادة، كذلك في رثائه قد وجدناه يلتزم هذا المبدأ سوى انه لاينسى رفيقه ابا نواس، فقد رثاه بقوله:ـ

كابر رفيك الزمان ياحسن فخاب سهمي وافلح الزمن
ليتك اذ لم تكن بقيت لنا لم تبق روح يحوطها بدن[٩٩]

اما رثاؤه للمتوكل ففيه اشارة خفية الى الصراع بين العرب والاتراك:ـ

يانائم الليل في جثمان يقظان مابال عينك لاتبكي بتهتان
أما رأيت خطوب الدهر مافعلت بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

وهو آخر من وجدناه قد رثاهم من الخلفاء، اذا سلمته الايام الى الكبر والضعف، فامست قرائح الشعر تنفر من خياله، وعصاه شيطانه، فهو الذي مدح المنتصر وحظي باحترامه، غير انه لم يرثه، فقد مات المنتصر والحسين في العقد العاشر من عمره.

(٩٧) الاسلوب ٨٥.
(٩٨) تاريخ الطبري ١٠ / ١١.
(٩٩) الاغاني ٦ / ٤٣٢.

٣ ـ الغزل:

الغزل هو «التحدث الى النساء والتودد اليهن»[١٠٠] وهو كما نعلم فيض من قلوب المحبين يعزز من مكانة المرأة عند الرجل، والرجل عند المرأة، وهذا هو الغزل الطبيعي الذي عرفه الانسان منذ وجوده على وجه البسيطة وقد حفل الشعر العربي بهذا اللون من الادب، فكان النسيب اهم اركان القصيدة العربية، بل فاتحة القريحة، ومطلع مطولات الشعراء، ومذهباتهم ومعلقاتهم، ومفتتح أماديحهم، وفخرهم، حين كانت الحياة البدوية مدعاة لذلك حيث الصحراء الممتدة، والسماء الصافية، والنفوس النقية من دكنة الحضارة، وتشعب الفكر. فكانت «هند» و «ليلى» و «ام عوف» و «وعد» و «فاطم» وغيرها من الاسماء التي ملأت اجواء الشعر وهزت قرائح امرىء القيس، ومجنون ليلى، وعمر بن ابي ربيعة، وغيرهم من عشاق الجمال، وكانت الوقود الذي ساعد في اضرام النار في قلوب المحبين.

ومع دورة الزمن، وانتقال العربي من دور البداوة القاسية، الى اطوار الحضارة الرفيعة، واختلاطه بأجناس لاتمت للعرب بصلة جنس تراه يتحول مع الموجة التي سادت ايام العباسيين يوم كثر الموالي، وساد التبذل، وانحرفت مجموعة من الشعراء، وغيرت مجرى الغزل بعد كثرة الجواري، وانحطاط قيمة المرأة، وهكذا بدأ الشعراء بالغزل بالغلمان، وكان الخليع واحداً من هؤلاء، له غزل كثير اجاد فيه[١٠١]. وله قصائد كثيرة في ذلك «اقتبس بعضها ابو نواس»[١٠٢].

ومع انغماسه في اللذة لم يحشر مع من حشروا في التبذل والفساد، فقد كان على ترفع، وسمو وربما افاد ذلك من عشرته الامراء والخلفاء[١٠٣].

ولانبعد كثيراً اذا قلنا ان سمة الشعر انذاك القول فيما يدور في فلك هذا اللون من الشعر، ولعل استخدام ضمير المذكر بدلاً من المؤنث لايعني في بعض القصائد الخروج عن الغزل الطبيعي، لاننا وجدنا للحسين قصائد بالغزل بالمرأة كذلك، وهو في هذا وذاك عفيف اللسان.

ومن يتتبع المفردة في غزله الغلامي يجدها هي نفسها في غزله الطبيعي فيها الوجد، والحرقة، والصد والهجران، ولوعة الفراق، والدلال، والاعراض، والطرف

(١٠٠) الغزل عند العرب ١٢.
(١٠١) معجم الادباء ١٠ / ٦.
(١٠٢) تاريخ اداب اللغة العربية ٢ / ٩٢.
(١٠٣) القبلة في الشعر العربي ٥٥.

الساحر، والارداف التي تشبه الكثبان في ثقلها، والغصن الذي يميل مع الريح، . . . الخ.

وجميع تلك المفردات وجدناه في الشعر العربي في معجم التغزل بالمرأة، ومن خلال النظر في غزل الحسين تتجلى ظاهرة انفرد بها شعراء عصره، وهي انهم يعبرون عن تصوير عاطفة اجتماعية فرضتها عليهم الحضارة الجديدة، وشجعها الموالي، فجاء غزلهم رقيقاً، فيه شكوى، وولع، وصبر وتجلد، كما فيه خفقات وجدانية مشرقة تندى لوعة الفراق كقوله:ـ

بأبي من وَدِدْتُهُ فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولاً فلما اجتمعنا كان تسليمه عليّ وداعا[١٠٤]

والحسين يجعل من طيف الخيال قناعة تقضي بها الضرورة، وان كانت عند بعضهم لوعة تبعثها ذكريات الماضي:

وماذا يفيدك طيف الخيال والهجر حظك ممن تحب
عناء قليل ولكنني ضمنيته بقنوع المحب[١٠٥]

وبالرغم من ان غزله بالمرأة لاتجد في معظمه حرارة العاشق الا انه قد اجاد في بعضه، وفي هذا تعبير عن لوعة الحب، وطلب الوصال:ـ

كأني اذا فارقت شخصك ساعة لفقدك بين العالمين غريب
وقد رمت اسباب السلو فخانني ضمير عليه من هواك رقيب
فمالي الى ماتشتهين مسارع وفعلك مما لا احب قريب
كأن لم يكن في الناس قبلي متيم ولم يك في الدنيا سواك حبيب
الى الله اشكو اذ ذكرت فلم يكن لشكواي من عطف الحبيب نصيب[١٠٦]

(١٠٤) اشعار الخليع ٧٦، وزهر الاداب ٣ / ١٧١.
(١٠٥) اشعار الخليع ٢٤ ـ ٢٥ ومدامع العشاق ط ٢ ص ١٢٠.
(١٠٦) اشعار الخليع ٢٦ وانظر: امالي المرتضى ٤٤ والزهرة ١٦٦.

فهل كان صادقاً في شكواه ام انه تعبير عن اسلوب قصصي في شعره الغزلي؟ ذلك مالا نستطيع الجزم به «سواء اكان ماقاله صادقاً فيه ام تقليداً لما كان يحفظه اذ ذاك»[١٠٧] غير انا نقول: ان الحسين لقادر على ان يقول الشعر في كل لون، ويجيد، والشعر خيال، واصدق الشعر اكذبه.

٤ ـ الخمريات:

لم تكن الخمرة في الشعر وليدة عصر الحسين بن الضحاك، بل كانت مصدر الهام الشعراء منذ جاهليتهم الغابرة حتى حضارتهم الزاهرة، «ولعل شعرهم فيها يعادل شعرهم في المرأة»[١٠٨]. ويفوق الشعر الخمري مثيله في آداب الامم الاخرى بالرغم من تحريمها في الاسلام، فقد رافقتهم في مختلف العصور الا سنوات التحريم الاولى في صدر الاسلام حيث تحوشي ذكرها، والتصريح بها. غير ان اختلاط العرب بالاعاجم، وتغلب العنصر الفارسي على الجانب اللاهي من الحياة «وهم اهل ترف وعبث وخمر»[١٠٩]، وكثرة الديارات، وانتشار الحانات، ومحلات اللهو ساعدت في تفضيل الشعراء هذا اللون من الشعر على غيره، وكان صاحبنا قد «استلزمت حياته الخاصة اجادة الخمريات في اسلوب موسيقي متين ينم عن خلق متين ووفاء جميل مع عبث وفكاهة»[١١٠].

شرب الحسين الخمرة مع صالح بن الرشيد، والامين، وابي نواس، ومطيع بن اياس، ووالبة بن الحباب، وحماد، ومسلم بن الوليد وغيرهم، فجاء شعره يعبق بالحركة والنشوة، ويسرح في الخيال، وخمرته مقرونة بالغزل غير الطبيعي، اذ لم تكن الخمرة فناً مستقلاً في شعره، كما لم يكن ذلك الغزل كذلك، لان احدهما يقود الى الاخر، فهما فنان متلازمان في شعره، يقول ذلك:ـ

في دير سابر والصباح يلوح لي فجمعت بدراً والصباح وراحا

والحسين عجل في امره، لايريد تأجيل لذة الى يوم آخر:ـ

---

(١٠٧) نديم الخلفاء ٣٣.
(١٠٨) فن الشعر الخمري ـ ايليا حاوي ٦.
(١٠٩) تطور الخمريات في الشعر العربي ١٧٥.
(١١٠) المنتخب من ادب العرب ٢ / ٢٤٦.

الراح تفاح جرى ذائبا كذلك التفاح راح جمد
فاشرب على جامده ذوبه ولاتدع لذة يوم لغد[111]

ومن خلال تتبعنا لشعره الخمري وجدناه لم يكن مولعاً بها اكثر من وصفه لما يدور في مجالسها من صحب، وسقاة، وغناء، وطرب. كما لم تسلمه الى القول الفاحش، والتهتك المكشوف، لانه يشربها في كثير من الاحيان مع الاكابر. وربما طلب منه القول فيها، وهو مع هذا قد ابدع واجاد في معانيها، وسبق اليها مما حدا برفيقه أبي نواس واصحابه ان يغيروا على معانيه، ويجوروا فيها، منها قصيدته الهمزية المشهورة:-

بذلت من تفحات الورد بالآء ومن صبوحك در الابل والشاء[112]

وهي ابرز قصائده الخمرية، واطولها، وقد جاء ذكرها في مصادر دراسة الشاعر مع اختلاف في الروايات، في نسبتها، وحذف بعض ابياتها.
ووردت في شعر الحسين الخمري نزعة قصصية توزعت اثناءها اوصافه للخمرة من حيث قدمها، ولونها، ونكهتها، وسقاتها، والطبيعة التي تعقد فيها مجالسها، كقوله:-

صفراء تنتحل الزجاجة لونها فتخال ذوب التبر حشو اديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها[113]

ويفضل الشرب على النوم:-

فارغب عن النوم الى شربها ترغب عن الموت الى النشر[114]

ويمزج بين جمال الطبيعة في شهر نيسان والاقبال على الخمرة:

الست ترى الصبح قد اسفرا ومبتكر الغيث قد امطرا

(١١١) اشعار الخليع ١٤، ومعاهد التنصيص ١ / ١٥٤، وحلة الكميت ١١٢.
(١١٢) اشعار الخليع ١٩ - ٢٣.
(١١٣) الوصف في شعر العراق ٤١٧.
(١١٤) اشعار الخليع ٦١.

واسفرت الارض عن حلة تضاحك بالاحمر الاصفرا
ووافاك نيسان في ورده وحثك في الشرب كي تسكرا[١١٥]

ذكر الصولي[١١٦] انه سمع بعض العلماء يقول: «اول الشعراء المتقدمين في صفة الخمر الاعشى، ثم الاخطل، ثم ابي نواس، ثم الحسين بن الضحاك ثم عبد الله ابن المعتز».

في شعر الحسين الخمري انتظمت عدة موضوعات لاتكاد تخلو منها اغلب خمرياته، وهي تدور حول:

١ ـ الكأس وصفاتها.
٢ ـ السقاة، وابراز محاسنهم، ومطارحاته الغرامية معهم.
٣ ـ الطبيعة المحيطة بمجالس الخمرة من رياض، وحانات، وادبرة، وشمس، وخمر.
٤ ـ الظرف والطرائف بين الندمان.
٥ ـ المجون والفاظه التي يعرفها الندمان.
٦ ـ الشكوى والانين.
٧ ـ الملاحاة.
٨ ـ اسماء الخمرة وصفاتها مثل (الجاشرية)، و (الخندريس) و (القهوة)، و (السلافة)، كما اكثر من ذكر (الصبوح) و (الغبوق) و (ابنة العنب).

٥ ـ الوصف:

الوصف هو «الكشف والاظهار»[١١٧]، وليس هذا اللون من الشعر جديداً على الشاعر، لاسيما انه يعيش في طبيعة هيأت كل موضوعات الوصف، ولم يبق الا عرض صورها باسلوب يستطيعه الشاعر والحسين يأخذ من موضوعات الطبيعة مادة لشعره ينتزع منها تشبيهاته، ويحسن الربط بين زواياها المختلفة.

ولم يكن الوصف فناً مستقلاً في الشعر العربي، وانما ينساب اثناء القصائد مع الاغراض الاخرى تبعاً لقوة احساس الشاعر بالجمال. وهو اكثر صلة بالفنون الشعرية منه بالفنون النثرية حتى يندر ان نجد فناً من الشعر خالياً من الوصف[١١٨].

(١١٥) اشعار الخليع ٦٠.
(١١٦) اشعار اولاد الخلفاء ١١٤.
(١١٦) الاسلوب ٩٠.
(١١٧) الوصف في شعر العراق ١٤.

فالوصف الرائع نحصل عليه من خلال قراءتنا شعر الحسين بمختلف صوره، فالمديح عنده مثلا كان نتيجة افضال وانعام وقد اتخذ الوصف وشاحاً له. وقد وجدنا ذلك خلال مديحه للواثق معبراً عن انفعاله بالطبيعة. فهو يصف السفينة التي اقلته في دجلة من بغداد الى سامراء وصفاً يشبه الى حد ما اساليب القدماء في وصف الراحلة والطريق، والاخطار ثم يخلص الى غرضه، وهو المديح:

الى خازن الله في خلقه سراج النهار وبدر الظلم
ركبنا غرابيب زفافة بدجلة في موجها الملتطم
كأن بها نشر كافورة لبرد نداها وطيب النسم
كظهر الاديم اذا ما السحا ب صاب على متنها وانسجم[118]

وفي وصف الحسين صور رائعة لجمال الطبيعة العراقية، ومافيها من رياض وانهار وجداول. ولعل لامتزاج الشاعر بالطبيعة اثرا في ذلك وخاصة في لياليه، ونهاراته التي امضاها في القرى والاديرة، وفي مراتع الصبا. وقد ينثر الالوان الزاهية خلال وصفه:-

وكالوردة الحمراء حيّا باحمر من الورد يمشي في قراطق كالورد

واوصافه في مجال الخمرة والغزل تعج بالصور والتشبيهات كقوله:-

قمر يحمل شمساً من رحيق الخمروان[119]

وهمزيته في الخمرة جاءت بأوصاف متتالية، فيها ألق رائع، وتشبيه جميل. ومقارنة حضارية بين القديم والجديد حين يقول:

بدلت من نفحات الورد بالآء* ومن صبوحك درّ الابل والشّاء

الى ان يخلص الى وصف يخلب الالباب:-

(١١٨) اشعار الخليع ٩٦ ـ ٩٧.
(١١٩) اشعار الخليع ١١٢ والبيت في الموازنة ٢٨١.
* الآء: نبات

قضت خـواتمهـا في نعت واصفهـا عن مثل رقـراقـة في جفن مرهـاء
تمـازج الـروح في ابهى مـداخله كـما تمـازج انـوار بـاضـواء
لايـدرك الحس منها حـين تبعثهـا الا التنسم او لـذعـاً بـاحشـاء

٦ ـ الهجاء والذم:

الهجاء «هو فن الازدراء والبغض»[١٢٠] وقد يتخذ طريق للقذف، والتعـريض، والسباب، ويقود الى فخر الهجاء بنفسه، او بقبيلته، ولسنا واجدين في هذا اللون من الشعر فنا اتخذه الحسين ليقول فيه من اجل مصلحة شخصية. وكل ماجاء فيه ـ على قلته ـ لايتعدى الهزء والسخرية بشخصية المهجو، وكان مبدؤه اهاجيه للمأمون من خلال موقفه الحاد والحازم الى جانب الامين، وشعوره بالحرمان بعد مصرع الامين، ومنه :ـ

فـلا فـرح المـأمون بـالملك بعـده ولازال في الـدنيـا طـريـداً مشـردا

او قوله :ـ

فـلا بات ليـل الشـامتـين بغبطة ولا بـلغـت آمـالهـم مـاتمـنـت

والحسين ليس ميالاً بطبعه الى الهجاء، كما انه لم يكن محتاجاً اليه، ومـا قال في المأمون املته الاحداث الدامية عليه..

أما هجاؤه للآخرين، فليس فيه سباب او اثارة للنعرات القبلية، بل جاء باسلوب بسيط. وصوره الهجائية مدعاة للضحك من اجل ان يقذع فيوجع، ويبرز الاضواء لكي تبدو مساوىء المهجو جلية، كقوله في قبيح الوجه :ـ

(سابور) ويحك ما اخســـــــــك بل اخصك بالعيوب
وجه قبيح في التبســـــــــم كيف يحسن في القطوب[١٢١]

(١٢٠) الاسلوب ٨٨.
(١٢١) اشعار الخليع ٢٩.

وهو لايوجع في هجائه لمن يؤمل رضاهم عنه بالرغم من سخطه عليهم احياناً، فاذا غضب لايقول اكثر من قوله لابراهيم بن المهدي حينما شرب عنده، وجرت بينهما ملاحاة في الدين والمذهب فكتب ابراهيم يعتذر اليه، ويسأله ان يجيئه، فكتب اليه الابيات:

نديمي غير منسوب ... الى شيء من الحيف
سقاني مثل مايشر ... ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس ... دعا بالقطع والسيف
كذا من يشرب الخمر ... مع التنين في الصيف[١٢٢]

فلم يعد لمنادمته مدة، ثم ان ابراهيم تحمل عليه، ووصله، فعاد لمنادمته.

اما ماذكر عن مهاجاته لمسلم بن الوليد، فليس لدينا نص شعري يؤيد تلك المقولة، التي لم يتحقق منها ابو الفرج الاصبهاني[١٢٣]، وهو قريب عهد بالخليع.

وقد يكون الهجاء مفروضاً عليه نتيجة مواقفه المبدئية، كهجائه المأمون. وقد يكون تابعاً من خوفه، كهجائه العباس بن المأمون، فقد تسربت شكوك الى المعتصم بان الحسين يدين بالولاء للعباس، مما اضطره على القول في العباس:-

خل اللعين وما اكتسب ... لازال منقطع النسب
ياعُرَة الثقلين لا ... دينا رعيت ولاحسب
ماتستطيع سوى التنفس والتجرع للكرب
مازلت عند ابيك منتقص المروءة والادب[١٢٤]

وربما اتخذ الهجاء وسيلة للتخلص من شخص ثقيل الظل لديه، كالذي قاله على لسان احد الجنود الجهلاء، اراد الوقيعة بينه وبين معشوقته الادبية فكان الحسين يكتب خطابات الجندي اليها، وهي تجيب عليها، فلما اتعبه بكثرة المعاودة كتب على لسانه ابياتاً اثارت ثائرتها، وانقطع الجندي عنه بعد ذلك، وهذه هي الابيات التي وضعها الحسين:-

---

(١٢٢) المصدر نفسه، وانظر اشعار اولاد الخلفاء ٢٦.
(١٢٣) الاغاني ٦ / ٣٦١.
(١٢٤) اشعار الخليع ٢٥، الاغاني ٦ / ٣٨٤، الفرج بعد الشدة ١ / ٧٥.

ارقصني حبك يابصبص والحب ياسيدتي يرقص
ارمصت اجفاني بطول البكا فما لاجفانك لاترمص
وابأبي وجهك ذاك الذي كأنه من حسنه عصعص[١٢٥]

وهو بهذا يستطيع ان ينال من شخص المهجو باسلوب فاضح.

٧ ـ اغراض اخرى:ـ

اشرنا فيما سبق الى الاغراض التي اجاد فيها الحسين وهي المديح والرثاء والغزل، والوصف، والخمرة، والهجاء. والمتأمل في شعره يجد اثناء شعره الوانا اخرى في جملة ابيات لاتستحق ان يفرد لها فصل خاص لقلتها، وعدم شهرتها، وهي دون فنونه الشعرية الاخرى، ويمكن الحاقها بتلك الاغراض كالفخر، والشكوى والاعتذار، فالفخر يمكن الحاقه بالمديح لانه مديح النفس، والاعتذار يخرجه الى مدح من يعتذر اليه، وقل مثل ذلك عن الشكوى، والحكمة، والمثل، والقناعة والزهد. منها قوله:ـ

سقى الله دهراً لم ابت فيه ليلة خليا ولكن من حبيب على وعد

وفي اعتذاره لصالح بن الرشيد:ـ

يابن الامام تركتني هملاً ابكي الحياة واندب الاملا
لو كان لي ذنب لبحت به كي لايقال هجرتني مللا
ان كنت اعرف زلة سلفت فرأيت ميتةُ واحدي عجلا[١٢٦]

ومن اقواله المأثورة:ـ

(١٢٥) اشعار الخليع ٦٩، والاغاني ٦ / ٤١٦.

(١٢٦) اشعار الخليع ٩٤.

وثياب المرء عارية تقتضى يوماً فترتجع[127]

وقوله :-

اذا شئت ان تلقى خليلاً معبساً وجداه في الماضين كعب وحاتم
فحاوله عما في يديه فانما تكشف اخلاق الرجال الدراهم[128]

وله في القناعة وذم الطمع :-

ياروح من عظمت قناعته حسن المطامع من غد وغد
من لم يكن لله منتهماً لم يمس محتاجاً الى احد[129]

وفي الختام نقول: ان شعر الحسين بن الضحاك يحوي من وجوه البيان، ومفردات اللغة، والمعاني المبتكرة ماجعله في مصاف الفحول من شعراء العصر العباسي، ومن الطبقة الاولى[130]، او الثانية حسب التسلسل الزمني للطبقات، كما فعل خفاجي[131]

ولنا عودة الى الشاعر بعد ان تتهيأ لنا الفرصة لنشر ماتوصلنا الى جمعه من شعره، واخباره، وماعقدناه من مقارنة بينه، وبين ابي نواس.

---

(١٢٧) المصدر نفسه ٧٢.
(١٢٨) المصدر نفسه ١٠٠، والمؤتلف والمختلف ١١٣ ومجالس ثعلب ٤٢٣.
(١٢٩) المصدر نفسه ٤٨.
(١٣٠) انظر معجم الادباء ١٠ / ٥، ووفيات الاعيان١ / ٤٢٤ وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣.
(١٣١) الحياة الادبية في العصر العباسي ٦٦.

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ الاسلوب ـ احمد الشايب ط ٥ مطبعة السعادة بمصر.
٢ ـ اشعار اولاد الخلفاء ـ الصولي ـ القاهرة ١٩٣٦.
٣ ـ اشعار الخليع ـ جمع وتحقيق ـ عبد الستار احمد فراج ـ بيروت ـ ١٩٦٠.
٤ ـ الاغاني ـ ابو الفرج الاصبهاني ـ ط دار الفكر بيروت ١٩٥٥ والساسي ١٣٢٣هـ.
٥ ـ امالي المرتضى ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار احياء الكتب العربية ١٩٥٤.
٦ ـ الانساب ـ السمعاني ـ ليدن ١٩١٢.
٧ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان ـ دار الهلال ١٩٥٧.
٨ ـ تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ـ مط السعادة بمصر ١٩٣١.
٩ ـ تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ المطبعة الخيرية بمصر ١٣٥١ هـ.
١٠ ـ تاريخ الطبري (تاريخ الامم والملوك) ـ المطبعة الحسينية ط ١.
١١ ـ التاريخ الكبير ـ ابن عساكر.
١٢ ـ التنبيه والاشراف ـ المسعودي ـ دار الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٨.
١٣ ـ حديث الاربعاء ـ طه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠.
١٤ ـ حلبة الكميت ـ النواجي ـ مصر ١٩٣٨.
١٥ ـ الحياة الادبية في العصر العباسي ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار العهد الجديد ط القاهرة ١٩٥٤.
١٦ ـ دائرة معارف البستاني ـ بطرس البستاني ـ مط المعارف ـ بيروت ١٨٨٣.
١٧ ـ الديارات ـ الشابشتي ـ تحقيق كوركيس عواد ـ بغداد ـ مط المعارف ١٩٥١.
١٨ ـ الزهرة ـ ابو بكر الاصبهاني ـ الاباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٣٢.
١٩ ـ ضحى الاسلام ـ احمد امين ـ ط١ الاعتماد ـ مصر ١٩٣٣.
٢٠ ـ طبقات الشعراء ـ ابن المعتز ـ لندن ١٩٣٦.
٢١ ـ شذرات الذهب ـ ابن العماد الحنبلي ـ القدس ١٣٥٠ هـ.
٢٢ ـ شرح مقامات الحريري ـ الشريشي ـ بولاق ١٢٨٤ ـ ١٣٠٠هـ.
٢٣ ـ الغزل عند العرب ـ حسان ابو رحاب ـ مط مصر ١٩٤٧.
٢٤ ـ الفرج بعد الشدة ـ التنوخي ـ المحمدية ـ القاهرة ١٩٥٥.
٢٥ ـ فن الشعر الخمري ـ ايليا حاوي ـ بيروت ١٩٦٠.
٢٦ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ شوقي ضيف ـ القاهرة ١٩٤٥.

٢٧ ـ الفهرست لابن النديم ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٣ .
٢٨ ـ القبلة في الشعر ـ علي شلق ط دار الاندلس ـ بيروت ١٩٦٣ .
٢٩ ـ الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير ـ ليدن ١٨٩٥ .
٣٠ ـ مجالس ثعلب ـ تحقيق عبد السلام هرون ـ ط ١ ـ دار المعارف بمصر ١٩٤٨ .
٣١ ـ مروج الذهب ـ المسعودي ـ البهية بمصر ١٣٤٦ هـ.
٣٢ ـ مسالك الابصار ـ ابن فضل الله العمري ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .
٣٣ ـ مصارع العشاق ـ ابن السراج ـ دار صادر بيروت ١٩٥٨ .
٣٤ ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ دار المأمون ١٩٣٧ .
٣٥ ـ معجم البلدان ـ ياقوت ـ ط ـ السعادة بمصر ١٩٠٦ .
٣٦ ـ معجم ما استعجم ـ البكري ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٧ .
٣٧ ـ معاهد التنصيص ـ العباسي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٩٤٧ .
٣٨ ـ المؤتلف والمختلف ـ الامدي ـ القدس ـ القاهرة ١٣٥٤ هـ.
٣٩ ـ المتحل ـ الثعالبي ـ التجارية ـ الاسكندرية ١٩٠١ .
٤٠ ـ الموازنة بين ابي تمام والبحتري ـ الامدي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ـ ٣ م . السعادة ١٩٥٩ .
٤١ ـ مجلة المقتطف ـ عدد ابريل ١٩٠٥ .
٤٢ ـ نثار الازهار ـ ابن منظور ط ١ ـ الجوائب ـ القسطنطينية ١٣٦٨ هـ.
٤٣ ـ النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردي ـ دار الكتب المصرية ١٩٣٠ .
٤٤ ـ نديم الخلفاء ـ عبد الستار احمد فراج ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .
٤٥ ـ الوصف في شعر العراق ـ جميل سعيد ـ الهلال ـ بغداد ١٩٤٨ .
٤٦ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٢٨ .
٤٧ ـ G. Le. STRANGE: BAGHDAD DURING THE ABBASID CALIPHATE.